لقاء مؤجل

الكاتبة: جهاد ربيع

تدقيق لغوي: أحمد فؤاد مرسي

الإخراج الفني: ضياء فريد

تصميم غلاف: أمنية محمد

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٣٧٥٤

الترقيم الدولي: ٧-٣٦-٦٦٨٩-٩٧٧-٩٧٨

كاريزما للنشر والتوزيع

9 شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين
بجوارمدارس حسام الدين الخاصة فيصل الجيزة.

موبايل : 01126026691 01061813345

01009823984

لقاء مؤجل

رواية

جهاد ربيع

زيارة بوطن تدمر!

القدس، 13 نوفمبر 1966

الساعة السادسة صباحًا، المنظر ساحر هنا، أقف بشرفة منزل صغير على مقربة شديدة من الحرم القدسي، أرى كافة الأرجاء من مكاني من الجامع القبلي بالجنوب وأسفله المصلى القديم، إلى المصلى المرواني الذي يقع بمحاذاة الأقصى القديم إلى الشرق منه، مواجهة للمسجد الأقصى نجد مصلى قبة الصخرة التحفة الهندسية الثمينة، أرى أيضًا البوابات الشرقية والشمالية للحرم، كل شيء ساحر ومبهر حقًّا، أحتسي القهوة بهدوء وأنا أتابع الصمت، والحركة الخفيفة التي تحلق بالمكان، حتى الصمت يحلو هنا، قداسة المكان وروعة تصميمه وبنائه تجعلني أشعر بالرهبة والجمال، حتى الأشجار والنسيم هادئان ربما خشوعًا وإجلالًا لهذا الموقف العظيم، وربما يشعران أنهما جزء من شيء عظيم. يا للخسارة!

مراد أدعى! مصري الجنسية، أعمل مهندسًا مدنيًّا، أسافر كثيرًا بحكم عملي، أحيا بالكثير من الأوطان والمدن. عليَّ إنهاء عملي والعودة خلال يومين، طالت هذه السفرة ولن تتحمل نور غيابًا أكثر من هذا، كما أنها ستغضب كثيرًا إن علمت بمجيئي هنا دونها، وفي الحقيقة هي غاضبة دائمًا ولا أجيد تهدئتها.

رسائل ورقية تلامس القلب أحيانًا، وأحيانًا أخرى تجرحه..

رسالة 1

اتضحت الأمور أكثر من اللازم، لم أود إحزانك هكذا، تعلمين مدى حماقتي، وأني أسقط وأعلن حاجتي إليك، أرتكب الجرم ثم أطلب منك أن تعذريني، لم أشأ يومًا أن أتنازل عنك ولم أفعل عن قصد، كنت تقولين لي دائمًا إنه ليس مستحيلًا أن يجتمع الماء والنار؛ لأننا اجتمعنا، خشيت حينها أن أقول لك إن ماءك لم يستطع إخماد نيراني، بل إن نيراني أحرقت قلبك كثيرًا. نور، لم أود يومًا أن نصل لتلك النقطة، ولكني لا أستطيع الاعتذار مجددًا، أنا فقط أحبك.

مراد

رسالة 2

كنت تعلم مدى خوفي منك، بالبداية أقنعت قلبي أن قصص الحب تسير على ما يرام وأن هناك قصصًا تنتهي بسعادة تامة، آمنت بك وبكلماتك، بقلبك، كنت أحدثك كي لا تبتلعني ظلمتي، وأنت كنت تعلم وتقول إنك لن تسمح بذلك، انظر ماذا فعلت بي، كيف كنت معي لهذه الدرجة؟ كيف بعد كل تلك الوعود ترحل؟! ما الحب برأيك؟ أن تقول إنك تحبني حقًّا ولا تستطيع العيش دوني، ثم عليَّ أنا مجددًا أن أتنازل وأغفر لأنك بحاجة لي ولأنني – للأسف – بحاجة لك؟ أكان علينا أن نصل لهذه المرحلة حقًّا؟ والآن ماذا سيحدث؟ سينتهي الأمر باعتذار وباقة ورد كما يحدث دومًا؟!

كان لقاؤنا الأول بمثل هذه الأيام، تتذكر؟ منذ عامين كنت أذهب إلى الإسكندرية لكي أبتعد عن ضوضاء المدينة قليلًا، كنت أنت حينها تذهب في رحلات العمل خاصتك، رأيتك عدة مرات بمحطة القطار ولم أتجرأ على التحدث إليك، وفي يوم ممطر أتذكره جيدًا كانت رحلتنا سويًّا كما المعتاد، ولكننا حينها على غير المعتاد صعدنا إلى نفس العربة، حدث خلل بالمحرك إثر هطول الأمطار واضطررنا أن ننتظر كثيرًا، أصابتني نوبة خوف وصرت أرتجف من اللاشيء، ضاق نفسي ولم أستطع التحدث، كيف كنت إلى جانبي حينها وكيف انتهى الأمر بعناق طويل منك حتى غفوت؟! لا أود أن أتذكر؛ لأنني كلما أتذكر أحن إليك مجددًا، ولا أود ذلك. حين وصلنا إلى الإسكندرية أجلت أعمالك ولم تود تركي، كان أول حديث لنا على شاطئ البحر، حدثتك كما كنت أحدثه دومًا،

ولا أعلم كيف اطمأن إليك قلبي سريعًا هكذا، أصبحت جزءًا مني في خلال يومين، بعدها رحلت.. تركتني بغرفة الفندق وحدي ولم تترك أي مكتوب، ظننت أنني كنت أحلم حينها، تركت الأمر لأنني أقنعت نفسي بذلك، عدت بعدها بشهر ولم أصدق عيني حينها، كنت دومًا ما ترحل دون أسباب، كنت دومًا غير مفهوم، ولكني تقبلتك!

نور

رسالة 3

كنت عالقًا دائمًا بين ما أريده وما يريده الواقع، لقاؤنا كان أحلى ما فعله الواقع بحقي، أما بعد فلا أود أن أتذكر أنني رحلت، وأنني تركتك مرارًا، وهذا لم يعد ذنبًا، كنت أود دائمًا أن أؤمن بما أشعر به، وقع قلبي بحبك ولم يقع عقلي قط؛ لذلك كنت أتخبط، أذهب ثم يقتلني الاشتياق، فأعود، ثم أذهب مجددًا، كنت أعذبك معي. قلت لك إننا لا نصلح أن نكون سويًّا، لم أستحق يومًا قلبك هذا ولم أرد تدميره، ولكنك كنت هشة بما يكفي لأن تسقطي ببعض الأيام التي أغيب بها، بكلمات لم تُقَلْ بحيرتك وخوفك غير المبررين، أنت أيضًا كنت تهربين! تهجرين قلبي لأيام فأعود خائب الخطى ألتمس سماحك، أردتِ إصلاحي ولم تستطيعي؛ فاعتبرتِ هذا فشلًا.. أما أنا فقد أحببت محاولاتك معي، ولكن لم أكن لأتغير، وأعلم حالي جيدًا.

مراد

شتاء بارد وعلاقة مثله!

كانت السماء صافية والنجوم تلمع وتنير السماء، لم يكن القمر بالجوار، كانت تجلس على حشائش الحديقة وتلامس يدها الأرض بهدوء، متغيبة عن الوعي بأفكارها، تخشى ألا يعود، ولا تود عودته، وإن عاد فستضعف وتسامحه؛ أجزاء قلبها غير متفقة سويًّا، أما عقلها فقد ترك أمرها منذ زمن. كانت ترتدي فستانًا ورديًّا وقد نثرت شعرها إلى الوراء كما تفعل ليغطي كتفها وظهرها بالكامل، كان هذا الوقت بأوائل الشتاء، انتبهت إلى صوت أقدام تقترب، همت من مجلسها بسرعة، عدلت ثوبها الوردي، لم تستطع أن تتبين القادم بعينها لقلة الضوء، ولكنه حين اقترب أكثر قالت وشفتاها ترتجفان: «مراد».

اتضح صوته أخيرًا، وقال بنبرة تعلمها جيدًا: «لم أود أن تستمر بيننا الرسائل أكثر، أردت رؤيتك».

ابتعدت عنه قليلًا، وقالت: «اذهب من هنا».

ـ نور، سيستمر هذا الخصام إلى متى؟

ـ هذا ليس خصامًا؛ لقد تركتك.

ـ ولكني لم أتركك بعد، ولن أفعل.

تسارعت أنفاسها الغاضبة واحمرت وجنتاها، ثم صرخت به: «أقول لك ارحل من هنا».

سمع كلماتها الأخيرة في عجز وابتسامة صغيرة على شفتيه، كان يروق له أن يراها غاضبة، كانت هيئتها حينها تستفز شعوره وتلك النشوة التي كانت تصيبه حين تظل تصرخ لساعات ثم يقوم بضمها إليه فتصمت بل تهدأ، كانت ترضي كيانه كرجل شرقي أصيل، كان يعلم أنه وطنها الوحيد. سمع حديثها بالكامل ثم اقترب منها أكثر وأمسك بذراعها ثم جذبها إليه كالمعتاد، استقر رأسها الصغير بموطن قلبه، تنهدت وهي تقاوم الحنين إليه؛ تعلم أسلوبه جيدًا، تعلم كيف يدمر كبرياءها كمرأة ثم يعيدها إليه كما لو لم يرتكب بحقها جرمًا، أحاط جسدها الصغير بذراعيه وهمس بأذنها: «تعلمين أنني لا أستطيع الاعتذار لك ولا أستطيع المكوث بعيدًا عنك، فهلا تبقين هكذا قليلًا، منذ زمن لم أشعر براحة هكذا». ساد الصمت بينهما قليلًا، كل روح وجدت ملاذها أخيرًا، كانت تتمتم بكلمات غير مفهومة، وهو كان مستندًا برأسه إلى كتفها يتمنى لو يستطيع أن يبقيها هكذا للأبد، لو تسامحه هذه المرة أيضًا وكل مرة. أفاقتها غصة بقلبها أعادت ثورتها مجددًا؛ فابتعدت عنه وحاولت التخلص من ذراعيه اللتين بدورهما لم تتركاها ترحل،

قالت بنبرة متألمة والدمع يترقرق بعينيها: «مراد، ارحل».

أجابها وهو يقاومها ويحاول ألا يفلتها من يده: «لمَ؟».

ـ لأنك إن بقيت هنا أكثر فسأسامحك مجددًا، سأطلب منك ألا ترحل وسترحل!

ـ حسنًا، هلا تهدئين قليلًا، لن أفعل هذه المرة.

قاطعته بصوت ساخر: «لو تستطيع أن تبقى على العهود التي تقطعها».

ـ قلت لك مرارًا إنني هكذا؛ لمَ لا تتقبلين الوضع؟

علت نبرتها وبغضب قالت: «مراد، أتعبث معي؟ أقول لك ارحل لأنني لا أستطيع تقبل الوضع هكذا؛ لأنني أتدمر من حالك هذا».

حاول التخلص من صياحها هذا؛ فقال بنبرة تعلمها جيدًا: «حسنًا، فلتسامحيني هذه المرة أيضًا».

ـ ثم ترحل ولا أراك إلا بعد شهر؟!

تخلصت من عناقه هذا وقامت بضربه بيديها الصغيرتين، وابتعدت عنه ثم صرخت بوجهه: «ارحل».

ثار غضبه قليلًا؛ كانت أول مرة تصل لهذه الحالة، أول مرة تفر منه وتقاومه إلى هذه الدرجة؛ فقال لها: «نور، توقفي عن هذه التصرفات الطفولية؛ تعلمين أنني لن أتركك هكذا».

تنهدت وهي على أعتاب البكاء، وقالت: «لأنني أعلم أنك لن تتركني؛ أقول لك اتركني لكي أهدأ قليلًا، لا أود رؤيتك حقًّا».

ـ تتحدثين بجدية؟

قالت وهي تحاول كبح مشاعرها الثائرة تجاهه: «سأذهب إلى الإسكندرية يومين أريح رأسي قليلًا، ربما بعدها أستطيع محادثتك».

اقترب منها مجددًا حتى أصبح يشعر بأنفاسها المتسارعة والغاضبة، ثم طبع قبلة على وجنتيها وقال: «سأشتاق إليك..».

والآن وداعًا!

السبيل الذي قطعته لكي أنساك قضى عليَّ حقًّا، أنا ابتعدت لأنني أعلم أنني أتعذب كثيرًا معك، وأنت لم تتركني رغم أنك تعلم أنني أحتاج وقتًا لأهدأ من تلك الصدمات، جلست بجواري طوال الليل تحاول إصلاح شيء فاسد: قلبي! كنتَ نذلًا للغاية يا عزيزي، وكنت أعلم ذلك وأتنازل عن كثير من الأمور لأنني أحبك وأريدك بجانبي، لأنني أكون بخير حين تكون أنت، ومؤخرًا استطعت مواجهة العالم برفقتك، لم أحب تنازلك عني، فقط بالبداية كنت ترحل لأنه عليك العمل، وكنت أتفهم الأمر؛ كثيرًا أعذر غيابك المتتالي وأطمئن عليك برسائل لم تكن تجيب عليها، حتى علمت أنك تخون العهد الذي قطعناه سويًّا، كان ذلك الأمر مثيرًا للسخرية حقًّا؛ فقد تزوجنا بعد تعارفنا بيوم واحد، أنا لم أطمئن لأحد من قبل حتى أتزوج به، وحين راق لي أمر الزواج اخترت أكثر شخص خطأ بهذه الدنيا! لم أكن أعلم حينها سوى أنني أود قضاء حياتي

معك أنت... الآن ذاهبة للإسكندرية حيث التقينا، لا أعلم ماذا ستفعل بي الحياة بعد ذلك، ربما أسامحك هذه المرة أيضًا وربما لن أفعل أبدًا، قلت لي يومًا إنك الحجارة الصلبة التي بها يستطاع إشعال النيران، ضحكت حينها وقلت إنك تهذي، الآن أستطيع أن أقول إن هذا الوصف يليق بك للغاية يا مراد.

تركت الرسالة بمعطفه الأسود وغادرت الغرفة في خلسة دون أن يشعر بها، كانت تقاوم رغبتها في البقاء وتسارع الوقت لأنه إن استيقظ فسيقنعها بأنها المرأة الوحيدة بحياته وأنه لا يستطيع العيش دونها، تعلم كل ما سيقوله ويردده، باتت تحفظه عن ظهر قلب؛ لذا قررت أن تبتعد قليلًا ربما تستطيع كبح أفكارها والسيطرة على قلبها، لتفكر بحكمة ولو قليلًا.

23 نوفمبر 1966
محطة القطار، الساعة السابعة صباحًا

قطعت تذكرة أول رحلة إلى الإسكندرية، كانت أقرب المدن لقلبها بمصر، فهي أول مدينة استقرت بها بعد هروبها من حرب الصهاينة وهدم بيتها بفلسطين. نور فتاة عربية الأصل من أم وأب فلسطينيين، تعلمت من أمها معنى الترحال، تسافر كثيرًا نظرًا لأوضاع البلاد السيئة؛ لذلك لم تعترف بوجود وطن لها قط، لطالما عجزت عن التعبير عن الانتماء والحب، منذ مولدها لم

تجد وطنًا تنتمي إليه، وبالغربة كانت تعد كل أرض تطأها قدمها وتشعر فيها بالراحة وطنًا، وكانت الإسكندرية خير وطن لها، فهي تحيا وحدها بمصر، تعمل كاتبة بإحدى الصحف، تتحدث عن الحرب والحب والحرية، عن كل شيء أوجعها بهذه الحياة، فتاة بلا وطن، جردتها الحرب من كل شيء أحبته، من أرضها وأسرتها، قضت على أحلامها، ولم تكن تعلم كيف الحياة إلا حين التقت به، ذلك الصخر الذي يشعل النيران.

وصلت إلى محطة القطار، كانت الساعة الخامسة صباحًا، تستقل أول قطار بهذا اليوم، تود لو تمر الساعات سريعًا فتلقي بنفسها إلى الشاطئ والبحر وتبتعد عن ضوضاء عقلها قليلًا، وربما تود أن يختفي شبح مراد الذي يلاحقها، ربما تود مجيئه الآن أكثر من أي وقت مضى، تشعر أنها تسرعت برحيلها. ألم يكن عليها اتخاذ موقف لكي ينتهي ذلك العبث؟ عرفته عنيدًا قويًّا، طيب القلب، وذا ابتسامة لها سحر خاص، أحبها بصدق ولكنه أحب نفسه أكثر من أي شيء آخر. جلست بعربتها الخاصة وبدأ القطار بالتحرك، أسندت رأسها إلى النافذة وسرحت بالشروق الذي أخذها إلى عالم آخر، شيء من نوع خاص؛ تذكرت أول أيامها معه كيف كانت السعادة تعم قلبها الصغير وكيف كان يحبها ويدللها، عقدت حاجبيها في غضب وقالت بصوت مسموع: «نور، اهدئي؛ لن تحني وتعودي مجددًا».

ولكني لا أقبل هذا الوداع! (١)

أيقظه تغريد العصافير التي تسكن الشجرة التي تطل عليها غرفتهما، لطالما كان يزعجه وأراد كثيرًا قطع تلك الشجرة ولكن نور منعته؛ فهي كانت تحب الاستيقاظ على صوتها. وما دامت العصافير تغرد هكذا فمعنى ذلك أنها ستستيقظ الآن. تحسس السرير بيده لكي يجدها فلم تكن بجواره، ففتح عينيه بثقل وكسل فلم يجدها، كانت ليلة البارحة هنا بجانبه، لعلها استيقظت لتحضر الفطور. قام من فراشه وخرج إلى الردهة يبحث عنها وينديها، لم تجبه، فبحث عنه بالمنزل كله ولم يكن لها أثر، عاد للغرفة مجددًا وفتح خزانتها ليجدها خالية من أمتعتها جميعًا، لقد رحلت! عقد حاجبيه في غضب؛ كان يظن أنهما تصالحا بالبارحة، فتح خزانته والغضب يتملكه، وارتدى ملابسه وغادر المنزل وهو على عجلة من أمره، ثم اتجه إلى محطة القطار.

«تعودت أن أشتاق إلى أشياء لا يمكنني العودة إليها. أنت والوطن أكثر ما أحببت بهذه الحياة، وأكثر من خذلني أيضًا، ولكن ألمك كان أقوى من ألم الوطن كثيرًا؛ لأنك كنت تعلم أنك أصبحت عالمي ووطني الوحيد، لا أدرك إن كنت أحببتني بصدق أم ماذا، تعلمني جيدًا، تعلم خوفي هذا جيدًا، تتذكر حين قلت لك: «عليك أن تتفهم خوفي غير المبرر هذا لأنني أصبحت أخافه»، كان عليَّ أن أخافك دائمًا، بل كان عليَّ أن أعلم أن مكوثك بجانبي لن يستمر. لا أفهم الرجال حقًّا، فأنت تعمل وتحارب وتمضي بطرق وعرة ثم تأتيني كالطفل التائه من أمه حائرًا ومخنوقًا تطلب مني ألا أرحل وأن أعانقك حتى ينتهي ألمك، ثم ترغب بالرحيل فترحل! أنا الآن بطريقي إلى الإسكندرية، لم تشرق الشمس بعد، وأنت تعلم أن شمسي لن تشرق بعد الآن، تتذكر رحلتنا إلى متحف اللوفر؟ كيف قلت لي حينها: «سأريكِ كيف سأجعل من كل مكان نذهب إليه وطنًا!»، أريتني العالم بأكمله وقلت لي بالنهاية: «الآن هذا العالم كله وطنك!»، قلت لك حينها: «يكفي أن أكون معك، وأكون هكذا بوطني»، أنا غريبة الآن، أشعر أنه لا توجد أرض تتحملني، لا يوجد وطن! لمَ وصلنا لهذه المرحلة؟ كنت أحبك، وما زلت...».

سقط قلمها فجأة لاهتزاز رهيب بالعربة وقوة ما تدفعها أرضًا تجلعها تفقد اتزانها وتسقط هي الأخرى، عبث هائل أصابها من حالة العربة وباتت تصرخ من الألم والخوف، تنظر حولها بذهول وكأن الكون يعصف من فوق رأسها، عربة القطار تهتز اهتزازًا عنيفًا وكأن القطار خرج من مساره المحدد، لم يتوقف بعد هذه

الحادثة بل ظل يتحرك في عبث رهيب حتى انقلب!

طال انتظاره بمحطة القطار، يمكث هنا منذ حوالي ثلاث ساعات، والقطار لا يصل. يكره الانتظار والتأخير، يكره كل شيء يجعله متوترًا وقلقًا حتى رحيلها، كان عليه أن يتمسك بها قليلًا وألا يسمح لها بالعودة. أحبها حقًّا بلهجتها الشامية وعينيها البنيتين وشعرها الأسود وملامحها الرقيقة، كل شيء بها يجعل قلبه يتحرك من مكانه، حتى صوتها. يعلمها من كتاباتها بالصحف؛ تتحدث عن كل شيء يشبهها ويشبه قلبها. رآها بمحطة القطار مرات عدة، فقرر بيوم أن يصعد معها لنفس العربة ربما يحدث ويتعرف عليها، لم يكن يعلم أن الكون سيخدمه لهذه الدرجة؛ تتلف أعصابها من تعطل القطار والقلق يتملكها، فيقوم بضمها إليه وتسكن روحها الجميلة داخله لتهدأ قليلًا بل تغفو بهذا العناق، فيقرر ألا يتركها أبدًا، أن تكون جزءًا منه للأبد. نزلا الإسكندرية وترنح قلبه كثيرًا وهي تتحدث إليه ناظرة لشاطئ البحر غير ملتفتة لملامحه التي باتت تتغير تدريجيًّا حتى قاطع حديثها هذا وطلب منها الزواج، ولقدره السعيد حدث ما لم يتوقع حدوثه وتزوجا، عاش معها أحلى يومين بحياته، ثم طرأ له عمل فغادر دون أن يعلمها، ولأنه كان يعلم سوء نفسه أراد الابتعاد، كان يعلم أنه سيؤذيها ببقائها بجانبه، حاول كثيرًا ولم يستطع فعاد. وأصبح حاله هكذا، يترنح يمينًا ويسارًا بالمكوث بعيدًا عنها، ويبحث عنها بكل امرأة يقابلها، ثم

يعود خائب الخطى ملتمسًا منها العذر وألف عذر. كان يعلم أنها لن تتحمل كثيرًا؛ لذا غرق في آثامه أكثر ربما تيأس منه، إلا أن صبرها الذي أثار غضبه وقوتها وإرادتها في إعادته إليها كالطفل التائه من أمه شوش عقله أكثر. الرجال لا يعلمون معنى الحب، وهو يؤمن بذلك ولكنه تعلق بها وأحبها، كانت قوتها تكمن في ضعفها، في إظهار كم هي بحاجة إليه، وهي دومًا كانت كذلك. ظل غارقًا بتفكيره هذا كثيرًا حتى انتبه إلى إعلان بالميكروفون أن القطار لن يأتي نظرًا لحادث اصطدام شاحنة بقطار صباح اليوم، وعلى المسافرين انتظار قطار المساء.

أفزعه هذا الخبر وأثار بركانًا بقلبه، حاول التماسك وسار في عجلة خارج المحطة يتمنى لو لم تكن قد استقلت قطار الصباح، أو لو يكون يحلم الآن، أو حتى لو تبتلعه الأرض، ركض إلى الخارج واستقل سيارة ليذهب إليها. وأين يمكن أن يجدها؟

العبث الذي احتل داخله حين لم يجدها بين المسافرين لا يوصف، اصطدام الشاحنة بالقطار بعثر الأجواء كثيرًا فأخرجه من قضبانه ليسير بأرض زراعية قليلًا قبل انقلابه، كل ذلك يحدث في لمح البصر والمسافرون يتملكهم الذعر. وقع عشر ضحايا لهذا الحادث والحمد لله لم تكن منهم، وليست أيضًا ضمن الجرحى ولا المسافرين؛ إذًا أين هي؟ قضى يومه كاملًا بالبحث عنها وقلبه

ينفطر وصبره ينفد، حتى وقف بردهة المستشفى بآخر اليوم وقد تملكه الجزع وقلة الحيلة وصرخ بأعلى صوته: «نور، أين أنت؟!».

ـ سيد مراد، بقاؤك هنا لن ينفع بشيء، سنخبرك إذا وصلنا لأي خبر عنها.

أتاه صوت الشرطي مزعجًا للغاية، فصاح به والغضب يتملكه: «كيف تريد مني أن أذهب لمنزلي وزوجتي مفقودة؟!».

ـ الشرطة تقوم بواجبها، وبقاؤك لن يفيد بشيء حقًّا.

سمع منه جملته الأخيرة وخرج من المخفر وهو ثائر حزين، كل شيء به يلومه على تركها ترحل، يخشى أن تكون رحلت للأبد، ألا يراها مجددًا، كان عليه ألا يغضبها لهذا الحد، دائمًا ما كان يجعلها تشعر أنها غير كافية أو أنها لا تستحقه، كان يسير بلا وجهة يبحث عنها بوجوه المارة، يخيل له مرارًا أنه رآها، فيركض ويلحق بها، وإذا به يلحق بسراب وخيال، كاد يفقد صوابه ببزوغ الشمس، ما زال يبحث بالطرقات، يفكر كيف قضت اليوم، كيف كانت حالتها حين انقلب القطار.. «كيف يحدث وأفقدك يا نور؟!».

عاد للمخفر حين حل الصباح، انتظر كثيرًا حتى يأتي شرطي ويحدثه، لا أخبار جديدة، ما زال البحث متواصلًا والنتائج سلبية، سلبية للغاية.

ظل ماكثًا بالشوارع أيامًا غير قادر على فعل شيء، يحاول تعقب أمور ليس لها وجود، كان انقلاب القطار في ٢ نوفمبر، ذكرى سيئة للغاية، يتذكر حزن نور وغضبها بهذا اليوم جيدًا وكيف كان يحاول تهدئتها، وإن مرت شهور دون أن يراها كان لا بد أن

يعود في مثل هذا اليوم كل عام، إنها ذكرى إقامة وعد بلفور، ذكرى بيع وتقسيم وطنها، وذكرى قتلها على الأغلب، ما كانت تتقبل رؤية أحد بهذا اليوم، ما كانت تتقبل رؤيته هو أيضًا، كانت تعتبر أنه خائن لتخلي وطنه عن وطنها، عدت هذا جرمًا لا يُغفر، ما كانت تفيق منه إلا بمضي اليوم وانتهائه، كل ما كان يفكر فيه كيف مضى اليوم عليها، وكيف تحدث حادثة القطار بيوم هكذا، وكأنه وعد جديد وقتل جديد لها.

أصبحت الأماكن متوحشة دونك!

عاد لمنزله أخيرًا بخطى متكاسلة وثقيلة، أمضى أسبوعًا كاملًا يتنقل بين القاهرة والإسكندرية، لم تظهر أي نتائج بعد، لم يدرك حديث الضابط المعتاد بأن مكوثه معهم لن يجدي نفعًا أو ما شابه إلا حين قال له إن عليه العودة لأنهم يبحثون عن سراب، وإنه من الوارد جدًّا أن تكون هربت منه بإرادتها، فحسب حديثه لهم كانا قد تشاجرا قبل استقلالها القطار بيوم، يوم واحد.

دخل غرفتهما بنفس ملذوعة، وروحٍ غاضبة حزينة. ألقى نظرة على الفراش... لم يشعر قط أنه مخيف من دونها لهذه الدرجة، ظهر كأنه ثقب أسود سيبتلعه إن اقترب منه؛ لذا حبذ الاستلقاء على الأريكة. يعلم جيدًا أنه لن يستطيع النوم، ولكنه سيحاول. أتتوقف الحياة بفقدنا أحباءنا؟ أتنتهي الدنيا أم تنتهي قوى الكون؟ وما الجيد بالرحيل إن كان سيؤذي هكذا؟ ما الجيد به يا «نور»..؟

يخطر بباله كثيرًا أن هذا هو ما كانت تشعر به، تلك الأيام القليلة التي لم يتحملها هو.. أمضت حياتها كلها.. أنهت ما تبقى من عقلها ودمرتها، كما كل شيء فعل.

استيقظ دون أصوات العصافير هذه المرة، أيقظته كوابيسه وصراخها يملأ سمعه، قام في ذعر بالغ يبحث عنها في الأرجاء بجنون، ويركض بطرقات البيت كما الثمل، ثم عاد مجددًا لغرفتها بيأسه وضعفه وغضبه، أثار كل شيء بالغرفة عصبيته – أو ادعى عقله هذا –، قام بإلقاء كل شيء بالأرض، قام ببعثرة الغرفة كما هي مبعثرة دماغه، ألقى معطفه الأسود بالأرض، ألقاه وكأنما يعلم أن به رسالة خاصة منها.. انتبه للورقة البيضاء التي ظهرت بالأرض، التقطها في لهفة وقام بفتحها..

«السبيل الذي قطعته لكي أنساك قضى عليَّ حقًّا، أنا ابتعدت لأنني أعلم أنني أتعذب كثيرًا معك، وأنت لم تتركني رغم أنك تعلم أنني أحتاج وقتًا لأهدأ من تلك الصدمات، جلست بجواري طوال الليل تحاول إصلاح شيء فاسد: قلبي! كنتَ نذلًا للغاية يا عزيزي، وكنت أعلم ذلك وأتنازل عن كثير من الأمور لأنني أحبك وأريدك بجانبي، لأنني أكون بخير حين تكون أنت، ومؤخرًا استطعت مواجهة العالم برفقتك».

ظهر نحيبه بالغًا هذه المرة يلوم نفسه، يلوم أنانيته، يلوم كل شيء بالحياة عداها، هي وحدها المحقة بهذه القصة، هي وحدها على صواب.

ارتدى ملابسه وألقى بنفسه إلى الطرقات مجددًا، لن يستطيع المكوث بمكان به رائحتها. خلاف أنه لا ينساها، فهو يتذكر آثامه ويكره نفسه أكثر كلما تخيل شبحها بالجوار.. قضى بقية ليلته بالشارع، وما إن حل الصباح حتى اتجه إلى مكان يمقته كثيرًا أو ربما يحبه – من يدري؟ – ولكنه يعلم جيدًا أنه كان عليه الذهاب منذ رحيلها.

لقاء مؤجل!

بخطى ثقيلة للغاية دخل منزل صديقها المقرب عمر، الأثاث العتيق وموسيقى بحيرة البجع التي تجوب البيت يلائمان للغاية قصص نور عنه، كاتب مشهور من الطبقة الأرستقراطية، رئيسها بالعمل، وصاحب الجريدة، يعرفها منذ أن خطت قدماها أرض وطنه، ساعدها كثيرًا وكان خير عون لها حتى ظهر مراد، والذي بحكم شدة انتمائه للمجتمع الشرقي وغيرته المفرطة وحبه لها لم يُبقِها على صلة قوية به، ولكنه الآن بحاجة إليه، بحاجة إليه للغاية.

انتظره بضع دقائق بصالة الاستقبال يحدق بصورة القدس المعلقة بعرض الحائط، ينظر إليها بإعجاب شديد حتى أتاه عمر، صافحه في حرارة وجلس قبالته. شاب وسيم بملامح شرقية وعينين عسليتين تنيران وجهه، ولحية سوداء تتم مراحل اكتمال القمر، يرتدي بدلة سوداء وتظهر عليه العظمة والنعيم. لاحظ إعجابه بصورة القدس، ولكنه تجاوز الأمر وحبذ البدء في الموضوع الذي بسببه أتاه هكذا دون موعد مسبق.

دون أي مقدمات قال مراد بجزع بالغ ظهر بصوته وملامحه، وكل شيء به يوحي بهذا حتى حركة أنامله البطيئة: «نور مختفية من فترة».

نظر إليه عمر بعجب وقال: «ماذا؟!».

فأردف مراد موضحًا: «حادثة القطار التي مر عليها أسبوع، كانت به ولكنها لم تظهر بعدها».

بادله عمر النظرات المضطربة وقال: «ماذا تقصد بـ «لم تظهر»؟».

أجابه موضحًا بألم: «لم تظهر، لم تكن ضمن الضحايا أو الجرحى.. لم تظهر.»

ـ وأنت أين تظنها مختفية؟

ـ لا أدري. أتيت لأطلب مساعدتك، أنت كنت صديقها المقرب؛ ربما تعلم شيئًا لا أعلمه أنا.

تنهد عمر في ضيق وقال: «حسنًا، نور فتاة مجنونة بعض الشيء، ولكن الأمر لا يصل لاختفاء كل هذه المدة، لا بد أن يكون حدث لها شيء».

ضاق صدر مراد، وظهر على ملامحه الخوف، وقال بنبرة يائسة: «إذًا فماذا حدث إن لم تكن ضمن الجرحى؟».

بادره عمر وقال: «أين أمتعتها؟».

ـ لم يجدوها بعد.

ـ إذًا هل أنت متأكد من أنها استقلت ذلك القطار؟

تشوش عقله قليلًا وقال بحروف متقطعة: «ماذا تقصد؟».

ـ أقصد إن لم تجد أمتعتها فما الذي أكد لك أنها استقلت ذلك القطار؟ ربما لم تلحق به.

نظر له مراد بقلق واضطراب، عقله لا يستوعب شيئًا وكأنه تعطل. كيف لم يفكر في هذا من قبل؟ كيف لم يخطر بباله أنها رحلت بإرادتها؟ ألم تقل إنها بحاجة للابتعاد قليلًا؟ ألم تقل إنها تركته وإنها ملت من رحيله؟ ألم يشعر بغصة بقلبه حين عانقها آخر مرة، حين أفلتته وطلبت منه الرحيل؟ كل هذا لم يُثِر به الشك ولو قليلًا، ظن أن كل شيء انتهى حين وافقت على وجوده بجانبها تلك الليلة، ما كان شيء يهدئ غضبها أبدًا؛ لذا ظن أنها سامحته ككل مرة. أفاقه عمر من ثورة أفكاره هذه وقال: «ألم تترك لك أي رسالة؟».

انتبه إليه، ونظر له بعجز قائلًا: «بلى، قالت إنها ستذهب للإسكندرية».

ـ إذًا هل بحثت عنها هناك؟

ـ بحثت.

تبادلا النظرات القلقة مجددًا، كان عمر صديقًا مقربًا لها، وبحكم معرفته لها فهي لا تختفي هكذا، لم تفعل ذلك أبدًا، لم تكن تحب الترحال على أي حال؛ عانت منه كثيرًا وكانت أغلب مقالاتها بالجريدة عن لاجئي الحرب، كانت تقول إن أصعب ما يمكن أن يتعرض له الإنسان أن يُطرد من وطنه، سواء كان وطنه مكانًا أو شخصًا، أما هي فقد طُردت من الاثنين، ولا أحد يعلم كم

هذا دمرها.

علا صوت المذياع بجوارهما فجأة ليكسر صمتهما هذا: «أنباء عاجلة: غارات مفاجئة من الكيان الصهيوني على شمال سيناء مما أدى إلى سقوط ضحايا عدة من مواطني البلدة».

لم يكن الأمر غريبًا، ولكنه غير محتمل بأي شكل من الأشكال، وذلك العجز الذي يكتفهما أثار غضب كليهما كما أثار غضب الكثير، قال عمر بضيق: «سيمر هذا الخبر على نور كالسكين بمنتصف قلبها».

بينما نظر مراد إلى صورة القدس المعلقة، وقال: «كانت دائمًا ما تحلم بزيارته مجددًا».

- أتعلم أنها هي من رسمت هذه الصورة؟
- ماذا؟!

أردف عمر مفسرًا الأمر: «حين جاءت إلى مصر بعد إحدى الغارات التي دمرت بيتها بالضفة، كانت ترسم صورًا للقدس كلما سنحت لها الفرصة، قائلة بأن علينا حفظ صورته جيدًا لكي لا ننساه أبدًا».

- لم أكن أعرف هذا الأمر.
- نور ذكية ولكنها يائسة للغاية، ربما كانت مفعمة بالحياة من قبل، وربما ما حدث لها كان بفعل الحرب بالنهاية، لقد وُلدت بمنتصف حرب ونهاية ثورة.
- تقصد الثورة الفلسطينية الكبرى.

وُلدت بعام ١٩٣٩، بعد ثورة استمرت ثلاثة أعوام، خسرت نصف عائلتها بهذه الأحداث قبل مولدها، ثم بعد أعوام قليلة فقدت والدها بسبب إحدى الغارات، وهذه الأمور طبيعية للغاية بالنسبة لأطفال فلسطين، بل إن هذه هي حياتهم منذ أعوام عدة. انتقلت بعد ذلك إلى القدس، قضت أغلب حياتها هناك، أو ربما قضت عليها الحياة.

صافحه مجددًا وهو يهم بالرحيل، أرشده عمر لشيءٍ هام، وهو أنه من الممكن جدًّا ألا تكون قد استقلت القطار. إذًا فعليه البحث عن حقائبها أولًا؛ اتجه إلى مركز الشرطة ليسأل إن كانوا قد وجدوا شيئًا ما.

داخل كل قصة، قصة أخرى!

على نحو آخر، كان عمر قد ذهب للجريدة ليبحث عن أي شيء بمكتبها..

قابل أروى صديقتها المقربة بالممر، كانت جميلة وأنيقة كعادتها، ترتدي فستانًا أزرق وسنبلة سوداء تنسدل على ظهرها لتصل حتى منتصفه، شابة مفعمة بالحياة، الابتسامة لا تفارق وجهها، ملامحها هادئة ومريحة للنظر، عيناها تلمعان دائمًا، كان من الغريب صداقتها لنور ولكنها صديقة الجميع، وهي المسئولة عن أخبار الفن بالجريدة. وقف معها قليلًا، داعبها كما كان يفعل دائمًا، ثم سألها عن نور دون إخبارها بشيء.

- قالت لي إنها ستغيب فترة لأنها ستسافر للإسكندرية، وقد تركت عدة مقالات يمكننا نشرها في حالة غيابها فترة طويلة.
- أين هذه المقالات؟
- معي.

- إذًا هلا تأتين بها إلى مكتبي؟

ابتسمت في خفة وقالت: «حسنًا، أستاذ عمر».

قامت بإحضار المقالات له، كانت كثيرة للغاية، نظر إليها بعجب وهي تضعها أمامه على المكتب: «ما كل هذا؟!».

رفعت حاجبيها ويديها في عجب هي الأخرى، وقالت: «وأنا أيضًا لا أعلم».

- هل قالت إنها سترحل لمدة كبيرة؟

- لم تقل لي شيئًا واضحًا، ولكن هذا ما يبدو.

أومأ رأسه في جزع وقال: «حسنًا، يمكنك الذهاب».

نظرت له بقلق وقالت: «هي بخير. أليست كذلك؟».

- بخير، بخير.

- حسنًا، أنا بمكتبي إذا أردت شيئًا.

ابتسم لها في امتنان، وقامت هي بالخروج وقلبها مضطرب وابتسامتها ليست على ما يرام، وكأنها شعرت بشيء ما ولم تود المصارحة به؛ فتاة كأروى تعلم جيدًا ما تقوله وما تفعله، ذكية بهذا القدر، لدرجة ألا تصارح بأي شيء بسهولة، أو على الأغلب هي لا تصارح أحدًا بشيء على الإطلاق، وعلى رغم أنها صديقة الجميع فالقليل – القليل جدًّا – صديق لها.

«ستكون مقالتي هذه بلهجة وطني». كانت هذه أول جملة قرأها عمر على غلاف، لم تتضح إن كانت ابتسامته ابتسامة إعجاب أم قلق، ولكنه تجاوزها وفتح أول صفحة بها: «تخليدًا للهجتي الفلسطينية الأصيلة أبدأ الحديث، راح يبدو الكلام كأنه ثرثرة ولكنها متل ثرثرة الغريق.. ما تنسونا بيوم من الأيام مهما اشتد الاحتلال، وليك مادري شو هالغباء، إحنا وطن واحد كيف بتنسونا؟! هالكلام بيخوفني كتير، بيخليني خاف المستقبل، هالحاضر ما بيبشر أبدًا، هالحاضر عم يُقتل أحلامي كتير، إذا بتريدوا يا إخواني ما تتركوا القضية؛ لأنها مانها قضيتنا لحالنا هي قضية أمة بحالها. راح يبان حديثي غريب شوي، بس أنا خايفة كتير، خايفة ما نقدر على هالكيان، وخايفة يصير الأمر غير كمان شوي سنين، بتخيل بعد خمسين سنة كيف راح يصير الأمر، بتخيل اسم هالكيان على خريطة العالم، بتخيل القدس صارت عاصمتهم كيف ما بيحلموا، وبتخيلكم تخليتوا عنا. بعرف إني ببالغ كتير، لهيك ما تتركوا القضية مهما طال احتلالهم هاد».

أنهى أول مقال وبكل أسف أغلق الملف ولم يحب إكماله، على الأقل بالوقت الحالي، ربما خاف شيئًا ما وربما لا، لم يحدد انطباعه عنها أكان سيئًا أم ماذا، لم تكن هذه طريقة نور بالكتابة أبدًا، لم يعهد عليها ذلك اليأس وهي تتحدث عن القضية الفلسطينية وإن خارت قواها، فهي تتحدث عن الحب والحرية، والحرب لم تنل منها أبدًا، ولكنها نالت منها كثيرًا بهذا المقال.

ولكني أحاول!

قابل مراد مأمور قسم القرية التي انقلب بها القطار، كان رجلًا لطيفًا للغاية ومتعاونًا، قال له إنه لن يصبر حتى يتم فرز حقائب الركاب جميعهم، وإنه بحاجة ليعلم إن كانت زوجته استقلت القطار أم لا؛ لذا يود بحثًا خاصًّا عنها. ثم أعطاه مواصفات الحقائب وترك رقم هاتف منزله ومكتبه، وقال إنه سيكون على تواصل دائم معهم.

في طريق عودته للقاهرة كان مشوشًا ومرتبكًا للغاية، كاد يحدث نفسه من شدة التفكير الذي يجوب رأسه، نظر للطريق من نافذة السيارة، نظر للحياة التي لم تتوقف والدنيا التي لم تهتم لحزنه حتى وجد الكثير يضحك والكثير يواصل حياته، وجد أن قلبه منهك للغاية وأنه يفتقد حياته برحيلها: «ترى إلى متى سيستمر رحيلكِ وغيابكِ هذا؟ وترى إلى متى سأصبر أنا؟ وكيف سأواصل حياتي دونكِ، دون النظر لعينيكِ وعناقكِ؟ كيف سأحتمي من هذا العالم وأنتِ لستِ بالجوار؟ أود فقط أن أطمئن عليكِ، ربما سماع صوتكِ الآن سيكون مثل المعجزة التي ستنير قلبي».

عاد إلى العاصمة، وبها ذهب لمركز الشرطة ليرى إن كان هناك خبر جديد، ولم يكن كالعادة. أصبح يبحث عن أي خبر جديد، رتابة الأحداث هذه ملها واختنق صدره بها، كاد ينسى أعماله وأحلامه كمهندس مدني مشهور بأرجاء البلاد، مؤخرًا أوقف تنفيذ كثير من المشاريع حتى يجدها، يجدها فقط ولن يؤلمها مجددًا.

عاد لمنزله المعتم الذي بات يشبهه للغاية في ظلام تام، دخل غرفته – أو بالأصدق غرفتها –، استلقى على الفراش في محاولة يائسة لأن يشم رائحتها، كانت هنا منذ أيام معه وبجانبه، إذا شاء كان بإمكانه ضمها إليه ليسكن ألمه، وإذا شاء كان بإمكانه مداعبة خصلات شعرها الأسود الكثيف، وإذا شاء كان بإمكانه رؤيتها. كل هذا عاد مستحيلًا الآن.

مراد

استيقظتُ على أصوات العصافير كما كنتِ تحبين، ألقيتُ لها الطعام لأول مرة بحياتي ثم عدتُ للفراش مجددًا، لا طاقة لي لمغادرة المكان الوحيد الذي به طيفك. هل أغضبتك لهذه الدرجة؟ ألم تقولي إنني مهما فعلت فلا طاقة لك لتركي؟ أهذا هو الوعد الذي قطعناه سويًّا؟ فلنقل إنني جبان وأخلف الوعود التي أقطعها، فلنقل إنني خائن، ولكنك لست مثلي؛ كيف تفعلين هذا؟ على الأقل أخبريني، هل أنت بخير؟ سماع صوتك الآن يكفيني، يكفيني للغاية يا حبيبتي. سأبقى هنا حتى يأتي خبر من ضابط القرية، سأظل مختبئًا من ظلام العالم في مكانك كما كنت تفعلين.

هل تحلق العصافير عقب انفجار ما؟!

في مقر الجريدة يجلس عمر بمكتبه، يستمع للأخبار بالمذياع، ملامحه مضطربة للغاية؛ فالأمور ليست على ما يرام إطلاقًا، الغارات تتوالى على سيناء ولا يوجد رد قوي من جيشنا، دخلت أروى مكتبه في عشوائية، كان يبدو عليها هي أيضًا أنها ليست على ما يرام، ملابسها غير متناسقة وأنيقة كما عادتها، وشعرها مبعثر بعض الشيء، نظر إليها بعجب وأومأ برأسه ليحثها على الحديث، فتحدثت بنبرة غريبة عليها وقالت: «سأترك العمل».

- صباح الخير لكِ أيضًا.
- أنا لا أمزح إطلاقًا.
- لمَ ستتركينه إذًا؟
- في ظل أوضاع البلاد هذه، أتظن أنه من الجيد أن نتحدث عن الفن؟ أتظن أن هناك من سيقرأ؟
- تتركين ساحة الحرب إذًا؟

- لم أكن جنديًّا بها حتى.

صوت المذياع يعلو مجددًا، وغارة أخرى بمنتصف سيناء شنَّها العدو صباح اليوم، نظرت أروى لعمر والدموع تتكاثر بعينيها، وقالت: «هل ننتظر حتى يصلوا للقاهرة؟!». قام من مجلسه، وقام بعناقها ثم همس بأذنها: «لن يصلوا للقاهرة؛ لا تقلقي». شعر بنحيبها بين يديه وبللت دموعها قميصه، أخبرته أن نور على حق؛ لا شيء يضاهي هذا الألم، أخبرته أنها تود الاختفاء مثلها، أن تكون شجاعة كفاية لتترك كل هذه الأمور وتفر، أبعدها قليلًا ونظر لعينيها، قال بنبرة خائفة: «إذًا فهل ستتركينني؟». نظرت له بعجب وحماقة ربما تكون مُدَّعاة أو تكون حقيقية، فأجلسها على الكرسي وجلس أمامها وقال: «نور أيضًا كانت تقول إن الحب يخفف من آلام الحرب كثيرًا».

ضحكت وقالت: «حسنًا، فلنعانق أحباءنا وننتظر القصف التالي».

قاطعها وقال فجأة: «أنا أحبك».

صمتت قليلًا، نظرت إليه بخجل وقلبها يتبعثر أكثر فأكثر، فواصل حديثه وقال: «تلك الحروب لا طاقة لي بمواجهتها إن لم تكوني معي يا أروى. لا ترحلي».

كان الأمر غريبًا؛ فرجل مثل عمر لا يعترف بحبه لأحد - وهل يمكن لشخص مثله أن يحب؟ - هذا النوع من الرجال يُحَب فقط، برغم كثرة الفتيات اللاتي حوله هل يختار واحدة فقط ليواجه معها الحرب؟ هل هذه معجزات الحرب التي تحدثت عنها

نور من قبل؟ فكرت بهذا وهي تتركه وتغادر مكتبه، لم يكن ردها صعبًا للدرجة، ولكنها فضلت ألا يكون الآن فحسب، ربما حين تنتهي الحرب ينتهي الحب! إذًا فما الفائدة من هذا الحب الزائف؟ قلبها خائف ويرتجف، وعقلها يعصف أكثر فأكثر.

وهل يتطاير الدخان قبل الانفجار؟!

اتصال يوقظه من نومه، مأمور قسم القرية يطلب منه المجيء ليتعرف على حقائب زوجته، في ظل ساعات قليلة للغاية كان هناك. ورغم أن الوقت مر كالدهر على قلبه، فحين رأى الحقائب تمنى لو لم تمر هذه الساعات. كانت حقائبها مبعثرة ومكسورة يخرج من أحشائها أشياء نور، قام بفتحها وألقى نظرة على ملابسها، ضمها إليه في عجز وصرخ؛ كانت هنا، استقلت القطار، انقلبت عربتها ولم تكن بجوارها يا مراد، ترى هل فقدتها للأبد أم ماذا يا تعيس الحظ يا أحمق؟ نظر إليه الضابط في لا مبالاة وأعطاه ورقة بيضاء ملطخة باللون الأحمر وبها بعض الكلام غير الواضح قائلًا: «يبدو أنها كانت رسالة إليك ولم تكتمل»، أمسك الورقة وقام بفتحها، كان خطها، ورغم الدماء التي اختلطت مع الحبر فقد استطاع قراءة ما سطرته له:

«تعودت أن أشتاق إلى أشياء لا يمكنني العودة إليها. أنت والوطن أكثر ما أحببت بهذه الحياة، وأكثر من خذلني أيضًا، ولكن ألمك كان أقوى من ألم الوطن كثيرًا؛ لأنك كنت تعلم أنك أصبحت عالمي ووطني الوحيد، لا أدرك إن كنت أحببتني بصدق أم ماذا، تعلمني جيدًا، تعلم خوفي هذا جيدًا، تتذكر حين قلت لك: «عليك أن تتفهم خوفي غير المبرر هذا لأنني أصبحت أخافه»، كان عليَّ أن أخافك دائمًا، بل كان عليَّ أن أعلم أن مكوثك بجانبي لن يستمر. لا أفهم الرجال حقًّا، فأنت تعمل وتحارب وتمضي بطرق وعرة ثم تأتيني كالطفل التائه من أمه حائرًا ومخنوقًا تطلب مني ألا أرحل وأن أعانقك حتى ينتهي ألمك، ثم ترغب بالرحيل فترحل! أنا الآن بطريقي إلى الإسكندرية..».

أنهى الرسالة وواصل صراخه، كان يبكي غاضبًا وحزينًا وساخطًا على نفسه، كان لديه بصيص من الأمل، حتى هذا فقده في لحظات الآن، جال بباله أمر واحد: هل ماتت؟ هل ماتت وتركته حقًّا؟ إذًا فأين هي؟ نظر للضابط أمامه وقال: «بعد التأكد من أنها استقلت القطار، إذًا فأين هي؟ أين اختفت جثتها؟».

أجابه الضابط بأنه ليس متأكدًا من وفاتها بعد، ولكن أمر اختفائها غريب بحق، وأن هناك من يتولى أمر القضية وعليه أن يعلم بآخر التطورات، ومن ثم فهو من سيقرر في هذا الأمر.

عاد مجددًا خائب الخطى إلى العاصمة، الوضع يشتعل وهو لا يبالي ولا يهتم، حتى لم يعد ينظر إلى تطور الأحداث بالحرب ولا يذهب لمكتبه الهندسي، لا ينظر للمرآة ليرى كيف أصبح حاله

يُرثى له، فقد كثيرًا من الوزن وأهمل لحيته وشعره فطال كثيرًا، حتى عيناه لا تنامان على أي خير، كل ما بهما أسى وغضب، ربما يغضب أكثر شيء من نفسه مما فعل بها، من حماقاته السابقة التي أدت بحياته إلى الهلاك، عاد لمنزله حاملًا حقائبها ورسالتها الأخيرة الملطخة بالدماء، أعاد ثيابها للخزانة في هدوء تام، فتح الحقيبة وأخرج فساتين ملونة أحبها للغاية، ينظر إليها ويخيل له شكلها فيها وهي تتألق، تجري، تضحك، تداعبه، وأيضًا وهي تصرخ به، وهي تلعن عمله وتلعن كذبه، وهي تتعارك معه في محاولة للتنقيب بأوراقه ورسائله، خيل له الأمر كاملًا أمامه فثار غضبه وترك كل شيء فجأة، وخرج للشرفة في محاولة للتنفس وهو يشعر أنه يختنق بما فعله، يختنق بخيانته، يختنق ولا يجيد فعل أي شيء، تابع تحليق العصافير وأصواتها، تابع حتى حركة أوراق الشجر، ثم عاد مجددًا للغرفة ليعيد الملابس، أمسك بقطعة قطعة يرتبها ويعلقها، فهذه سترة بيضاء كانت تحبها، وأخرى سوداء كان هو يحبها، ولهذه التنورة قصة ما، ولهذا الفستان موقف مضحك، ثم جال بباله أن كل شيء معها كان بخير وجميلًا، تعاد ذكرياته دون قصد، يتذكر رحلاتهما حول العالم، هذا ارتدته بلبنان، وهذا فرنسا، وهذا إيطاليا، يتذكر أنها ألحت كثيرًا عليه ليذهبا للقدس، ولكنه خاف ورفض، كان يعلم أن حالتها ستسوء بالذهاب، لم يرد أن يراها ضعيفة أبدًا، «مؤلمة الحياة على هذه الذكريات يا مراد، فلتترك هذا الألم وتخرج»، هذا ما كان يُردد بعقله، ولكنه آثر البقاء، أعاد كل شيء لمكانه، حتى أوراقها أعادها لمكتبها،

مذكراتها التي كانت تحبه وتشكو منه بها، لطالما قرأها دون علمها، لطالما قبل أي شيء منها، ومنها هي فقط.

مراد

كان كل شيء جيدًا معك وبك، حتى خوض الحروب كان أسهل بجانبك، لا أسامح نفسي يا نور، لا أستطيع رغم ندمي الشديد ورغم كل شيء يؤلمني بغيابك، فأنا لن أسامح نفسي أبدًا، دمرتك دون قصد، أعلم أنك كنت متعبة ولكن كنت أقول ستتحمل كما كل مرة، لمَ بهذه المرة لم تنهضي كباقي المرات السابقة؟ وإن كان هروبك تهديدًا قاسيًا اعتبرته مزحة، أو خيل ببالي أنني سأجدك وأرجعك إليَّ مجددًا، سامحيني، أنا تائه دونك، وبقلبك الذي كان يتألم لأجلي دائمًا، بيدي وهي تلتف حولك وتتمسك بك وأنت بذروة غضبك، كنت تعدين سفري ورحيلي تصريحًا بالتخلي عنك، لم أفعل أبدًا؛ كيف يتخلى المرء عن روحه؟!».

انهار وبات يبكي كالطفل، لم يعد يتحمل وليس عليه أن يتظاهر بالقوة أبدًا وإن كان عليه أن يتماسك قليلًا بالأمل لكي يجدها. ولكن كيف وهو يشعر أنها ضاعت من قلبه؟ أنهى أمر الحقائب ودخل المطبخ خاصتها، كان مضيئًا بنور الشمس التي تحتله بقوة من النافذة، سحر الألوان البيضاء والوردية معًا، كان رقيقًا بذوقها للغاية وحنونًا أيضًا، أخرج طعام الطيور وخرج إلى شرفة غرفتهما ووضع الحبوب للعصافير، ثم عاد للغرفة مجددًا، نظر للنتيجة المعلقة بتوهان، ما زالت النتيجة على تاريخ ٢٣ نوفمبر وبعقله: «كم مر من الوقت وأنا لا أدرك حتى أصبحت ذكرانا

السيئة بنفس التاريخ يا حبيبتي؟!».

*مراد *

إنها الثانية عشرة ظهرًا، أسمع أذان الظهر بالخارج والشمس تغزو الغرفة كالمُحتل، أستلقي بلا روح على الفراش.. لم يعد الوقت يمر دونك! لم أعد أنتبه لأي شيء، أعلم أنك ستغضبين كثيرًا إن علمتِ بحالي هذا، ولكن صدقيني لا طاقة لي بعد رحيلك، لا أعلم إن كنت أنتظر الموت أم أخافه، ولكني أنتظر شيئًا واحدًا، أي شيء سيجمعني بك، أهتم بالعصافير خاصتك ولم أزل الشجرة خاصتها، أنثر لها الحبوب بالصباح وأضع المياه، أفتح الشرفة ليتخلل الضوء ثنايا روحي كما كنت تقولين، أرش عطرك بالأرجاء، أحب أن أشعر بك، أطمئن كثيرًا حين أظن أنك بجواري، لم أعد أسافر كالسابق، كل شيء على ما يرام ينقصك يا نور.

كورقة شجر بآخر الخريف تتساءل
إن كان عليها الصمود أكثر..

تتوالى الأيام ولا يوجد أخبار جديدة من الشرطة. هل فقد الأمل أم فقدها؟ لا يعلم، ولكن الأيام متشابهة وغريبة تمر بشعور مؤذٍ لا يزول، لم يعد ينتبه للتاريخ، كل ما يعلمه أن فصل الشتاء انتهى، وحتى الربيع كاد ينتهي، لا يجيب على اتصالات عمر، ويلغي كثيرًا من أعماله، يذهب للمكتب من حين لآخر بثقل بالغ، أصبح يؤمن أنها ميتة، لم يعد يريد شيئًا سوى العثور على جثتها ودفنها، قال هذا لعمر حين ذهب إليه.

بوسط البلد، قريبًا من ميدان التحرير يقع مكتبه الهندسي، تتميز الأبنية هناك بالعراقة والمنظر الساحر، بُنيت في عهد الخديوي إسماعيل؛ حيث كانت القاهرة حينها تسمى باريس الشرق. دخل عمر شارع قصر النيل واستقر أمام بناية عالية وسأل حارسها إن كان المهندس مراد بمكتبه، فأخبره أنه أخيرًا هنا؛ فقد كان متغيبًا من فترة، وكان عمر يتردد على المكتب كلما سنحت له أعماله، ولأنه

أيضًا قريب من مقر الجريدة فكان من السهل الذهاب إليه. صعد لأعلى بالدور الثاني ودخل المكتب، استقبلته السكرتيرة بابتسامة سخيفة، فتاة بالعشرين من عمرها، شقراء وترتدي قميصًا أبيض وتنورة قصيرة للغاية، نظر لها عمر وقال: «مراد متفرغ؟».

فأخبرته أنه ليس متفرغًا حاليًّا وعليه أن ينتظر قليلًا. لسبب ما لا يحب عمر هذه الفتاة أو لا يرتاح لها ولا لحركاتها، ويشعر أنه شعور متبادل؛ فهي لا تحب تردده على المكتب من حين لآخر، يظهر هذا من طريقتها، ابتسامتها ولغة جسدها – وعمر يفهم لغة الجسد للغاية –. تحتسي القهوة أمامه وهو ينتظر مراد إلى أن جزع صبره وقام يدخل مكتب مراد، وهي تلاحقه وبغضب تقول: «ألم أقل لك إنه ليس متفرغًا؟!».

وجد مراد يجلس إلى مكتبه يفحص بعض الأوراق بلا روح وكأنه أُجبر على الجلوس لا أكثر، رفع عينيه ليتابع المشهد الذي يحدث أمامه، وينظر للسكرتيرة ويهز رأسه بأنه لا بأس، ثم يقوم ليصافح عمر في حرارة وتخرج هي. يجلس عمر قبالته ويقول بغضب: «هذه الفتاة مزعجة للغاية».

يجيبه مراد بنفس غائب: «لا عليك منها. كيف حالك؟».

ـ بل كيف حالك أنت؟

يأخذ نفسًا عميقًا ويُخرجه بضيق، ويقول: «كيف سيكون؟!».

ينظر إليه عمر بحزن وغضب من قلة حيلته، ويقول: «إذًا هل هناك خبر جديد؟».

نظر إليه بسخرية وقال: «الجواب المعتاد: لا».

ـ وأنت كيف تصل لهذا الحال؟

ـ ماذا أفعل؟!

ـ تكمل حياتك.

فَعَلا صوت مراد بغضب وقال: «قل أنت كيف تستطيع أن تكمل حياتك إن كانت زوجتك مفقودة، أخبرني أنت كيف كنت ستكملها وماذا ستفعل!».

ـ أتأسف. كيف يسير العمل إذًا؟

ـ متراكم ولا أفعل شيء.

نظر إليه بأسف وقال بجدية: «مراد! كيف تترك نفسك هكذا؟! ومستقبلك وأحلامك، ماذا عن كل هذا؟!».

نظر إليه بلا مبالاة وقال: «دعك مني الآن، أنت لمَ ما زلت تنشر مقالاتها وكأنها على قيد الحياة؟».

ـ لأنني أؤمن أنها حية.

ضحك بأسف وقال: «يا ليتني أؤمن مثلك هكذا».

ثم واصل حديثه بنفس النبرة الباهتة وقال بألم بالغ: «كل ما أريده هو العثور على جثتها، أن يوجد قبر لها أستطيع البكاء عليه».

لم يستطع عمر تسكين ألمه، في الحقيقة لم يستطع فعل أي شيء، كانت زيارته له بمثابة إعادة تذكيره بها ولكنه لا ينساها من الأساس، عجز عن الحديث و لم يجد ما يفعله سوى أن يتركه ويذهب ليعيش أحزانه بحرية، قام من مكانه وعانقه وقال: «أنا

هنا إذا أردت أي شيء»، وتحرك ليذهب من المكتب فناداه مراد وقال: «لا تكتم صوتها إذًا، استمر بنشر مقالاتها ولا تخشَ شيئًا، هذا ما يُشعرني أنها بالجوار».

نظر إليه عمر بامتنان وقال: «لا تقلق، لا أنوي أن أخمد صوتها أبدًا».

اتجه إلى الجريدة ليباشر أعماله، بطريقه إليها كان يفكر بشيء واحد، وهو كيف ينطفئ الإنسان هكذا باسم الحب؟ كيف تموت روحه وأحلامه لهذه الدرجة؟ ومن أعطى الحق للناس بالرحيل وتدمير أحبائهم هكذا؟ تذكر أروى وخوفها وتوترها الذي أدى إلى طلبها الرحيل، البشر يرحلون حين يتغلب خوفهم عليهم، حين يجدون ألا مفر من الألم الذي يحيا بداخلهم. خوف النساء وحش هائل بالنسبة إليهن، يصور لهن أنه لا فرصة ليحيين، ولأن الألم الذي يسكن داخلهن يصور لهن هواجس وقصصًا حتى تؤدي بهن إلى الهلاك، هكذا فسر الأمر طوال الطريق، وحين وصل أخيرًا كان مشتتًا ومضطربًا يأمل ألا يرى شيئًا يزعجه مجددًا، ولكنه يعلم أن منظر أروى سيزعجه، ويخاف من أن يراها، يمقت عجزها وخوفها هذا لأنه يشعر بالعجز معه ويغضب داخله. قابلها بالممر الطويل المؤدي إلى مكتبه، كانت متألقة على غير العادة بالأيام الأخيرة، أصبحت تبكي أكثر مما تعمل، لقد قضت الحرب على أحلامها على الأغلب، يحاول أن يحدثها ولكنها تنفر منه، تقول ألا حال لها للتفكير بأمور الحب والحرب على أعتاب العاصمة كما تدعي، تخاف كثيرًا، تقول: «من يصل إلى سيناء بهذه السهولة فسيصل

إلى القاهرة بسهولة أيضًا»، كل حديثها عن عزاء أحلامها وأنها كانت تود فعل كثير من الأشياء. يخبرها أنها تعذب نفسها بتخيل أمور لن تحدث، فتدعي أنه لا يفهمها، تنهي الحديث بالغضب عليه وتركه، يتقبل الأمر، يتقبل منها أي شيء، منها هي فقط. ولكن اليوم يبدو أنه سيستطيع مداعبتها كما الأيام الماضية، كانت ترتدي فستانًا بلون السماء، تضع أحمر الشفاه، وأخيرًا أعادت شعرها الأسود لعهد السنبلة الطويلة، رآها فابتسم وابتسم داخله أيضًا وقال: «أشرقت الشمس على الأغلب اليوم»، بادلته الابتسام وقالت: «كيف حالك؟».

ـ أفضل بكثير الآن، وأنت؟ يبدو أن شيئًا قد حدث معك.

اقتربت منه وقالت: «قرأت شيئًا ما، ربما هو السبب»، ثم أمسكت يده ونظرت لعينيه العسليتين وقالت: «ما دمنا نعاني في جميع الأحوال، فلنجعل لمعاناتنا معنى».

زادت ابتسامته ولمعت عيناه وقال: «يعني؟».

ـ يعني أنا أيضًا أحبك.

بداخلي شيء لك..
ربما حقد وربما حب

ربما تشرق شمس أحدهم بينما آخر ينطفئ، هذه سُنة الحياة، وهكذا يكمل الجميع حياته. ولكن كيف تظلم سماء أحدهم، وشمسه ما زالت حية؟

انتهى عملها وعادت لبيتها بالحلمية، منزل صغير وأنيق يشبهها كثيرًا، أروى تحيا بمفردها، لا عائلة ولا أهل، توفي والدها بالحرب وهي صغيرة عام ١٩٤٨، لم ترَه من قبل، ولا تتذكر والدتها كثيرًا؛ فقد لحقت به بعد أعوام قليلة من شدة الحزن عليه، تولت أمرها جدتها، تولت أمرها لفترة قصيرة ثم رحلت كما رحل الآخرون، هي أيضًا دمرها الكيان الصهيوني، هي أيضًا فقدت أباها بحرب غير متكافئة الأطراف معهم، ربما لذلك كانت صديقة جيدة لنور، ربما لأن لا أحد يعلم قصتها هذه غيرها أيضًا، لم تجهر بأسرارها قط إلى سوى نور؛ ربما لأنها شعرت أنهما مشتركتان

في نفس القدر القاسي. دخلت البيت بهدوء، نظرت بالأرجاء فلم تجدها، فدخلت غرفتها، فلم تكن توقفت للحظة وقلبها يرتجف حتى خرجت من الشرفة، ركضت إليها وأغلقت المشربية، وقالت: «ألم نقل إنك لن تظهري للعامة؟».

قالت بضجر: «سئمت من الجلوس وحدي».

جلست بجانبها وقالت لها بنبرة جدية: «نور، ألم نبالغ قليلًا؟».

- في ماذا؟
- أخبرني عمر اليوم أن مراد بحالة سيئة للغاية؛ يظنك ميتة، يبحث عن جثتك لكي يكون لكِ قبر يستطيع الذهاب إليه.
- تعاطفتِ معه يا أروى.
- كثيرًا.
- هل تظنين أن الأمر سهل؟ حتى أنا أتألم لحاله، لكن..
- لكن ماذا يا نور؟ مرت شهور. ألا يكفي؟
- كان يغيب أوقاتًا كهذه أيضًا، أردت له أن يشعر بما شعرت أنا.
- تعاقبينه وكأنه الاحتلال.
- هو ليس كذلك، هو وطن تخلى عني، وهذا أسوأ.
- ألا تفكرين في العودة؟
- أفكر كثيرًا، وأود هذا كثيرًا.

كانت أروى الوحيدة التي تعلم ما حدث لنور، قفزت من القطار قبل انقلابه، سقطت بإحدى القرى الزراعية، قضت ليلتها هذه حيث سقطت حتى وجدها أحد الفلاحين بالصباح، أخذها إلى منزله واهتمت زوجته بها حتى أفاقت، وحتى التأمت الكسور بجسدها، كانت تحيا معهم، لم تشأ الذهاب لأي مستشفى، وكانت الأسرة متعاونة وطيبة للغاية، تحملوها بعض الأسابيع حتى استردت صحتها، بعدها هاتفت أروى وقصت عليها الأمر، أخبرتها أيضًا أنها لا تود العودة وأنها تود له ألا يعلم بما حدث لها، فأحضرتها إلى منزلها واهتمت بها، بكل يوم كان أمر مراد يسوء ولكنها كانت تتماسك لكي لا تعود، ربما لأنه أرهق روحها وقلبها كثيرًا، ربما حبها له كان قليلًا لتغفر له رغم أنها كانت تتألم ولكنها تتماسك، وقلبها ينهار وعقلها ينهار، كل شيء ينهار بسببك مجددًا يا مراد.

نور

أنت قلت المكوث وحدي سيؤذيني، ستأكلني أفكاري، سأستمر بخلق الأحاديث وستستمر خلافاتنا، قلت كل هذا، ولكنك من تركتني دائمًا وحدي. كنت أتفهم غيابك بعض الأوقات، وبعضًا آخر كان يذبحني ذلك الغياب، كان عليك أن تتفهم أنه ليس بيدي، رحلاتك لم تكن تنتهي ولا تسمح لي بالسفر ولا بالاستمرار في العمل، أنت قتلت فيَّ كل شيء بداعي الخوف وبحجة أنك رجل شرقي وتغار. وأنا؟ لا أغار؟ لا يقتلني الغياب؟ لا تثور مشاعري حين أفكر أنك تبتسم لإحداهن؟ قلت لك إن الصدمات تتوالى عليَّ ولكني أستطيع التحمل لأنك هنا، فلا تركتها تقتلني ولا

جعلتني أتجاوزها، كنت عالقة بك ومعك للأبد المطلق. الآن، كيف حالك بعد رحيلي؟ أتشوق لرؤية عينيك اللتين تظنان أنني ميتة. وكيف حال عقلك وهو يتخيلني جثة هامدة ملقاة بإحدى الأراضي؟ تخاف أن يتعفن جسدي فلا تجدني ولا يكون لي قبر تستطيع البكاء عليه، آسفة لما أفعله بك الآن، كان عليك أن تقدر روحي أكثر من تقديرك لجثتي التائهة، انقلاب القطار لم يكن مُخططًا له، ولكنه كان فكرة عظيمة لإيلامك قليلًا.

استيقظت قبل أروى كالمعتاد، تسميها بالكسولة لأنها تنام كثيرًا ولكنها هي التي تستيقظ باكرًا، اعتادت هذا منذ كانت بوطنها تقوم فتصلي الفجر وتلف حجابًا أسود على رأسها ووجهها لتضع الحبوب للعصافير، لم تترك هذه العادة بعد، تريح مسامعها بالإنصات إليها وهي تلهو حول البيت في فرحة غريبة، ثم تجلس على الأريكة التي أمام المشربية، بيت أروى أنيق للغاية يريح العين، ألوانه ما بين الأزرق والأبيض. تجلس أمامها وتفتحها بدرجة صغيرة للغاية تسمح لها برؤية المارة، حياة العزلة صعبة للغاية، ترهق العقل كثيرًا، وهي لا تود أن تظهر للعامة، ويرهقها التفكير ويؤلمها قلبها؛ تقول إنها لا تقبل أن تكون في قلب شخص يشاركها فيه أحد، ثم تعاود التفكير في أنها تحبه، كيف تتخلى بهذه السهولة؟ حسنًا، لقد تحملت خمس سنوات، لم تتخلَّ بسهولة أبدًا، لطالما حذرته ولم يأخذ كلامها على محمل الجد أبدًا، كان يعلم أنها تبقى، الذي يحب يبقى، الذي يحب يبقى رغم أي شيء يا نور. أثار تفكيرها غضبها، فخلعت الحجاب وقامت من أمام

المشربية لتتفقد أروى قليلًا، تركت صالة الاستقبال واتجهت لغرفتها، غرفة بيضاء بالكامل، أثاثها أبيض، ونافذة صغيرة مقابل الفراش تزينها وتنيرها، وأروى مستلقية عليه كالملائكة، شعرها الطويل يلتف حولها في طريقة لطيفة للغاية، دخلت نور وباتت تصرخ باسمها كي تستيقظ؛ تعلم أن نومها ثقيل للغاية، لا ينفع معها منبهات، إما أن يوقظها أحد أو تتأخر على العمل، لم تجد منها جوابًا ففتحت النافذة قليلًا كي يتخللها النور، لتقوم أروى بتغطية وجهها بالوسادة، فتنزع منها نور الوسادة وتأخذ الغطاء وتبتعد، تقوم الفتاة من نومها بوجه عابس وتجلس على السرير وهي تصرخ بأن تتركها لتكمل نومها، فتقوم بالاقتراب منها بهدوء، وبنظرة طفولية تقول: «هل أخبرك عن قصة ما؟»، لتبادلها أروى النظرات وتقول: «هذه هي خطتك لإيقاظي أم إن هناك قصة فعلًا؟».

ـ حقًّا هناك قصة.

فتتحرك على جانب الفراش وتشير إليها بأن تجلس وتقص قصتها، تحب قصصها وتحب السماع إليها، مجرد حديثها يمتعها، ولو أنها لا تطمئن وترتاح لها ما كانت لتمكث معها كل هذا الوقت. جلست نور ونثرت الغطاء عليهما ثم نظرت لأروى وقالت: «ولكن لن تبكي ككل مرة».

ـ حسنًا، لن أفعل.

ـ وعد؟

ـ وعد.

«في عام ١٩٥٦ كان عمري ستة عشر تقريبًا، كان لديَّ ابنة عم تُدعى سارة...».

دير ياسين

سارة فتاة جميلة، ملامح شامية بحتة وعينان بنيتان وشعر أسود، كانت تكبر نور بعشرة أعوام تقريبًا، فتاة جميلة مثلها بحجاب رأس يغطي نصف شعرها، ترتديه لترضي جدتها أكثر شيء، والداها ماتا بمذبحة دير ياسين، أسوأ مذبحة مرت على التاريخ الحديث.

المشكلة أن أمرهذه المذبحة كان غير متوقع إطلاقًا؛ ففي ربيع ١٩٤٨ كان جيش التحرير العربي المؤلف من متطوعين فلسطينيين وآخرين من شتى البلدان العربية يشكل هجمات على الطرق الرابطة بين المستوطنات الصهيونية، وسميت بحرب الطرق، كانت شيئًا مثل الحصار ولكنها كانت حربًا آدمية للغاية بالنسبة لما فعلته العصابات الصهيونية، دير ياسين كانت قرية صغيرة غرب القدس رفض رجالها التدخل في أمر حرب الطرق هذه، فضلوا البقاء في صمت، بل إنهم رفضوا استخدام القرية للشن على قاعدة صهيونية بجانبها، ولكن العصابات الصهيونية فكرت في أن الاستيلاء على قرية كهذه سهل وسيساعدهم في رفع

الروح المعنوية لذويهم. وبفجر يوم التاسع من أبريل قامت عصابتا الأرجون وشتيرن بشن هجوم مسلح على أهل القرية، وفوجئوا برد القرية عليهم بالأسلحة أيضًا؛ مما أدى إلى قتل أربعة من ذويهم وجرح اثنين وثلاثين، فطلبوا الإغاثة من قيادة الهاجاناه بالقدس ليتمكنوا من استعادة جرحاهم. ثم قاموا بشن هجوم آخر، يطلقون النيران على الجميع لا يفرقون بين طفل وشيخ وامرأة، سقط حينها ما يقرب من ثلاثمائة ضحية، ولم يكتفوا بهذا الأمر فقط بل أخذوا بعض ضحايا القرية الأحياء ليستعرضوهم بالأحياء اليهودية وسط هتافات منهم وفرحة عارمة، ثم عادوا بهم لقريتهم وعذبوهم أشد التعذيب، من حرق الجثث واغتصاب الفتيات أمام أهلهن، إلى تقطيع أجسادهم أحياءً وإلقائهم بالنار وسط كل ذلك الزحام والذي نعجز عن تسميته مجزرة حتى! كان والدا سارة ضمن الضحايا، بل إنها رأتهما يُقتلان أمام عينيها، كانت بالثالثة عشرة، حينها هاجرت كما هاجر الجميع من القرية إلى أن أصبحت خاوية؛ حيث ذهبت لتعيش مع جدتها بالقدس.

أعطِني رغم الحروب وردة

اشتهرت سارة في أحياء القدس بهذه الجملة، كانت تبيع أزهار بستان جدتها، تقول كيف التأمت جروحها هكذا؟ حسنًا، هذا ليس كما تظن، أجبرت على الحياة واستمرت أنفاسها فقط دون إرادتها، ومن يدرى بمَ تحلم كل يوم وكيف تقضي أيامها؟ ربما تهرب من تلك الذكرى، وربما ما فعلته جدتها ليس بقليل. تلك المرأة القوية التي صمدت لأجل أبنائها وأحفادها، كانت تحيا هي وسارة بمنزل صغير بمنتصف بستان هائل يضم شتى أنواع الأزهار من شقائق النعمان والتي تدعى أيضًا الدحنون والنرجس البري، اللوتس والأقحوان والركف والخزامى، أنواع هائلة وثمينة بحق، وهذا طبيعي لطبيعة فلسطين الخلابة، فهي تملك ما يقرب من ١٢٤ نوعًا من النباتات الزهرية، وبالقرب من تلك الجنة منزل نور ووالدتها تزور كل منهما الأخرى يوميًّا، وترى نور سارة وتستحيي من أن تحدثها، بينما سارة تجمع الأزهار بالصباح الباكر وتعد الفطور ليفطرن هي وجدَّتها وزوجة عمها ونور، ثم تعقد وردة

بشعر نور وتطبع قبلة على خدها وترحل لتبيع الأزهار. يعلمها أهل القدس خير علم، يسمونها بأقحوانة القدس، لطيفة وبريئة كالأزهار التي تبيعها، جميلة مثلها، وجهها وردي ويمتلئ بالحياة!

وفي الأول من نوفمبر كانت سارة تستعد للخروج كالمعتاد لتبيع الأزهار، كان يومًا ببدايات الشتاء والبرد قارس بعض الشيء ولكنها لا تحب الجلوس بلا عمل، لا تحب أن تترك نفسها لأفكارها وأهوال عقلها، كل شيء يذكرها بالمذبحة، مجرد إغماض عينيها يأخذها لنفس اليوم بنفس الأحداث، كيف خرج والدها للدفاع مع أهل القرية وكيف ركضت أمها وراءه وكيف سقط الاثنان بنفس الوقت! وهي مختبئة بالمنزل تحت فراش والديها تتابع أذناها دوي الرصاص، ويخفق قلبها بشدة حتى كاد ينفجر! لذلك فمكوثها بمفردها لا ينفعها، خرجت رغم برودة الطقس، كانت ترتدي عباءة ثقيلة سوداء وشال صوف أحمر حول ظهرها وغطاء رأس أسود يغطي نصف شعرها، وخصلاتها الأمامية تظهر بوضوح وتطير مع الرياح الشديدة، اختبأ معظم الناس بمنازلهم نظرًا لحالة الطقس، وكانت تتجول بساحات القدس بمفردها تقريبًا، ترى طفلًا فتعقد وردة بشعره كما تفعل مع نور، نور ليست طفلة ولكنها تكبرها بقرابة عشرة أعوام، لا تحدثها كثيرًا، تعتبرها طفلة، تحنو عليها لأنها تشفق على حالتها التي تشبه حالتها هي أيضًا؛ فوالد نور – والذي يُعد عم سارة – مات أيضًا بإحدى غارات الجيش الصهيوني! وبقيت نور وأمها بمفردهما. غرقت في أهوال عقلها مجددًا، لا يوجد بشر بالجوار فتكتفي بهذا القدر،

اليوم لن تبيع الأزهار، اليوم سيكون غيرا! خرجت من ساحات الحرم القدسي واتجهت شرق المسجد الأقصى حيث مقبرة باب الرحمة، وهي أشهر المقابر الإسلامية بالقدس؛ دُفن فيها عدة من صحابة الرسول وبعض المجاهدين أثناء الفتح العمري والأيوبي، تدفع نفسها للأمام بصعوبة بالغة وبيدها سلة الأزهار، ستنثرها على القبور وتعود. الطريق طويل، يبعد كيلومترين عن المسجد الأقصى، تبتسم ابتسامات منكسرة كلما تذكرت والديها، ترتعش أناملها وتحاول طرد هذه الهواجس، تقول: «سأكون بخير» بين الحين والآخر وتحاول التركيز بأي شيء آخر حتى وصلت للمقابر، صعدت أحد الأدراج ونثرت الأزهار من أعلى حتى أسفل بهدوء تام ونفس متألمة، ثم جلست بجانب أحد القبور وبجانبها سلة الأزهار، وباتت تتحدث وكأنهم يسمعون صوتها:

«تعلمون شيئًا؟ لقد اشتقت كثيرًا لأبي وأمي، أود أن أتذكر ملامحهما فقط، حتى هذا لا أفلح به، ليس بحوزتي صور لهما، ولا أتذكر شكلهما حتى! كلما حاولت استحضار الصورة بذهني لم أرَ سوى منظرهما وهما غارقان بدمائهما...».

ـ لا تتذكرينهما إذًا!

ظهر صوت رجالي فجأة، فصرخت وهمت من مجلسها، نظرت لمصدر الصوت بجانبها فكان لشاب بالثلاثين من عمره، ملامحه شامية وشعره أسود ولحيته سوداء، يمسك حقيبة صغيرة بيده ويظهر على وجهه الإرهاق، قالت بخوف: «من أنت؟!».

فقال مُطَمئنًا إياها: «حسنًا، اهدئي؛ أنا فلسطيني».

فأردفت: «ومنذ متى وأنت تستمع إليَّ؟».

فقال بابتسامة صغيرة تعلو ملامحه: «منذ كنت تنثرين الأزهار بالأعلى وأنا أتابعك».

فأمسكت بسلة الأزهار وكانت على وشك الرحيل، فأمسك بيدها فجأة وقال: «حسنًا، لن أزعجك، ولكنني أود المساعدة».

نظرت له بخوف، ونظرت ليده الممسكة بمعصمها وقالت: «ماذا تريد؟».

ـ أود مكانًا أختبئ به يومين حتى أدبر نفسي وأذهب لمصر.

ـ مصر؟!

ضحك في لطف وقال: «حسنًا، لا أعد فلسطينيًّا تمامًا؛ فوالدي مصري».

فقامت بسؤاله: «ولمَ أتيت هنا إذًا؟!».

نظر لعينيها البنيتين وقال: «ستساعدينني؟».

فهزت كتفيها في يأس وقالت: «أساعدك».

سارا سويًّا طوال الطريق، يتحدث حينًا ويصمت حينًا، وهي تنصت إليه، فقط تبتسم أحيانًا، وأحيانًا أخرى لا تجيبه ملامح وجهها. سئم من عبوس وجهها وتجمدها هذا وقال لها: «كيف مات والداكِ؟».

توقفت فجأة عن السير ونظرت للأرض في محاولة يائسة لمنع عينيها من البكاء، ثم قالت: «أخبرك كيف مات والداي وتخبرني لمَ أتيت إلى هنا وما قصتك؟»، فقال لها: «حسنًا، اتفقنا..». بدأت تقص عليه الأمر لأول مرة، ولأول مرة تقص تلك الليلة بجميع تفاصيلها مجددًا، تتذكرها كأنها كانت البارحة، لم تترك تفصيلة صغيرة واحدة كأنها كانت تود مشاركة هذا الحديث مع أحدهم منذ أعوام، منذ أعوام تود أن تفصح عن أنها متعبة وأن ما رأته وعاشته لم يكن سهلًا، نبرتها تخونها حينًا فتبكي، وحينًا آخر يتملكها الغضب والكراهية، يخبرها أن كل شيء سيكون على ما يرام، سيقتص منهم هو وزملاؤه، سينتصرون عليهم بعد أعوام قليلة، أعوام قليلة ولن يتواجد كيان صهيوني ينتهك أحلامك هكذا، توقف فجأة ونظر إليها وقال: «أعدك»، ثم خلع سلسلة برقبته على شكل بيت صغير وألبسها إياها وقال: «هذه قلادة أمي، أقسم بحقها وحق والديك أنني لن أتركهم».

ابتسمت وقالت: «حسنًا يا....».

ـ حسن.

ـ وأنا سارة.

صافحها وقال: «سعدت بلقائك».

بقيت يدها قابعة بيده للحظات قصيرة وهي تنظر لعينيه وللقلادة، فظهر على وجهه الارتباك وقال: «هل بقي الكثير؟».

فقالت له: «وصلنا»، ثم أشارت له إلى بستان جدتها وأردفت: «الآن ستدخل ولن تصدر صوتًا، حسنًا؟ هناك كوخ صغير بالبستان ستجلس به حتى أحضر لك لحافًا، ولكن بلا صوت، اتفقنا؟».

ـ اتفقنا.

دخل الكوخ الصغير الذي يقع على حافة البستان، بينما هي ذهبت للمنتصف حيث المنزل، كان وقت غروب الشمس، وبهذا الوقت تكون جدتها ووالدة نور تعدان الطعام، ألقت عليهما السلام وأشارت لنور بأن تأتي إلى غرفتها، دخلت الفتاة وراءها وأغلقت الباب عليهما، ثم جلستا على الفراش وهمست سارة بأذنها: «أستطيع أن أثق بك، أليس كذلك؟».

فنظرت إليها نور بابتسامة بريئة وحماس بعينيها وقالت: «بالطبع».

فأردفت وقالت: «حسنًا، هناك شاب هارب من جيش الاحتلال هنا، نستطيع أن نؤمن له فراشًا مريحًا وطعامًا، أليس كذلك؟».

فأجابتها وروح الثورة تتدفق بعينيها وقالت: «بالطبع، ولكن كيف أتى؟!».

ـ سأقص عليك..

قصت عليها الأمر وطلبت منها إلهاء جدتها وأمها حتى تستطيع المرور بالأغطية وتوفير له ما يلزمه من طعام، ففعلت نور وقلبها يكاد يقفز فرحًا من اطمئنان سارة لها، مرت في خلسة دون أن ينتبه أحد وذهبت للكوخ، أعدت له فراشًا مريحًا بغطاء ثقيل

وقالت إنها ستحضر الطعام بعد قليل، فقال لها: «لم تعرفي لمَ أتيت هنا».

ـ الأمر واضح؛ يبدو أنك هارب من الصهاينة.

ابتسم وقال: «صحيح».

ـ هون الله عليك.

تركته وخرجت، ذهبت إلى المنزل وكانت جدتها تناديها للطعام، وحالما دخلت قالت جدتها بغضب: «أين كنتِ كل هذا الوقت؟!».

ـ ذهبت لمقبرة باب الرحمة.

صمتت الجدة وأومأت برأسها في تفهم، تعرف حفيدتها جيدًا، تتألم لحالها ولانطوائها في الحديث هكذا، ولكنها تصبر وتقدر حالتها، أعدت المائدة وجلسن الأربعة سويًّا يتناولن العشاء، كان يبدو على نور الحماسة، وجهها يضحك ويشرق على غير العادة، لاحظت والدتها وقالت لها: «خير يا نور؟ ماذا بك؟».

فبادرتها سارة بالإجابة وقالت: «أخبرتها أن تقضي الليلة معي؛ لذلك هي متحمسة قليلًا».

نظرت إليهما الجدة وفرحة عارمة تغزو وجهها: «يا له من خبر رائع!».

حل الظلام وخلدت الجدة للنوم، وعادت أم نور لمنزلها بالجهة الأخرى، في حين أعدت سارة ونور الطعام لحسن وذهبتا إليه، فتح لهما الباب في هدوء ودخلتا الكوخ، وبدأ بالأكل، لم يزل من على وجه نور آثار الدهشة بعد، فقال حسن: «أختك؟».

- ابنة عمي.
- أنا نور.
- مرحبًا، وأنا حسن.
- هل أنت حقًّا هارب من الجيش الصهيوني؟

هز رأسه وضحك وهو يقول: «نعم».

- تعلم أن والدي مات بإحدى الغارات؟

نظرت إليها سارة وقالت: «ليس وقته الآن، دعيه يتناول الطعام».

فنظر هو لسارة وقال: «أصبحتِ بخير؟».

- بخير بخير، ولكن علينا الرحيل لكي لا تشعر جدتي، سآتي بالصباح، ولكن احرص على ألا تصدر صوتًا.
- لا تقلقي.

خرجت الفتاتان، وبهدوء تام عادتا للمنزل حيث الجدة تنام، كانت نور تهمس لسارة وتسألها الكثير من الأسئلة، وسارة تدعوها أن تلتزم الصمت حتى وصلتا لغرفتها وأجابتها عن كل التساؤلات الصغيرة خاصتها. وبالصباح تستيقظ الفتاتان، واحدة تحضر الفطور والأخرى تجمع الأزهار، وتستغلان وقتًا تنشغل به الجدة فتذهبان بالطعام له، وبعدها تخرج سارة لبيع الأزهار. واستمر هذا الأمر ما يقرب من عشرة أيام، حتى كان العاشر من نوفمبر، وبزيارة ليلية للفتاتين للكوخ حيث تحضران الطعام، قال حسن لهما: «سوف أذهب الغد بالصباح».

نظرت له نور وقالت بحزن بادٍ على نبرتها ووجهها: «لمَ؟!».

ـ عليَّ الذهاب، لن أستمر بالهروب على الأغلب.

بينما آثرت سارة الصمت ورجحت الذهاب من الكوخ بسرعة، أوقفها حسن وقال: «ابقي قليلًا أرجوكِ».

فخرجت نور بعدما لاحظت الوضع وذهبت للمنزل.

قالت سارة بشفتين مرتجفتين ونبرة حزينة: «سترحل؟!».

فأجابها وعيناه تلمعان كأنه سيبكي: «عليَّ ذلك».

ترددت نبرة صوتها وقالت: «إذًا لمَ أتيت؟».

فقال مفسرًا: «كان عليَّ الاختفاء قليلًا حتى يهدأ الوضع».

ـ أتظنه يهدأ ببضعة أيام؟!

كانت نبرتها غاضبة ووجهها حزين، يستطيع الضرير أن يلاحظ التغير الطارئ عليها بالآونة الأخيرة، والآن سيذهب، تشعر وكأن الكون سيتخلى عنها مرة أخرى! ربما حب، وربما الهشاشة النفسية التي بها تجلعها تؤمن أنه حب! من يدري؟ أمسك بيدها وقال بأسف: «سأشتاق إليكِ كثيرًا».

فبادلته النظرات المتألمة وقالت: «ولكن ستأتي من حين لآخر بالطبع».

فقال بأسف: «لن يمكن هذا».

ـ لمَ؟!

ـ حسنًا، أنا لم أخبرك بشيء..

ـ أخبرني إذًا!

جذب يدها وجلسا على الفراش وقال: «إذًا أنا الآن هارب من جيش الاحتلال، أليس كذلك؟».

تهز رأسها بخوف وتنتظر ما يفصح عنه بفارغ الصبر ليردف: «ولكن هل تساءلتِ لمَ يبحثون عني؟».

- لمَ؟

- لأنني ضمن جماعة الفدائيين، سننفذ عملية قريبًا، وعليَّ الاستعداد..

اضطربت دقات قلبها فجأة وانهارت نبرة صوتها وهي تقول: «فدائيين؟! تقصد..».

أمسك بيدها وقال: «حسنًا، لا عليك».

كانت تراجع الأحداث بذهنها، تجمعها، وتسوء حالتها كلما أيقنت بشاعة الأمر، فقالت مفسرة كأنها أدركت رحيله التام عن هذه الحياة: «لذلك لن تسطيع العودة! ستقتل نفسك معهم!».

- سارة، اهدئي.

انهارت قامتها وبدأت بالبكاء والنحيب وهي لا تدرك شيئًا، الآن لن تخفض صوتها من أجل جدتها ولن تكترث إن بكت أمام إحداهن، الآن هي لا تتحمل فقدان شخص آخر وفقط.

علا صوتها وسمعتها نور، فقامت بإغلاق غرفة جدتها ونظرت من النافذة لتتابع المشهد، كانت تشعر بشيء كهذا، سارة تحبه، تقول هذا لنفسها بين الحين والآخر وتحاول فهم أي شيء ولا تستطيع!

وهي ما زالت تبكي وصوتها يعلو، وهو عاجز لا يستطيع فعل أي شيء، يتماسك بصعوبة ويتابعها بعجز، يكاد يقول إنه أيضًا أحبها، يكاد يفصح ولكن بهذا الأمر عاقبة أخرى وهو عليه الرحيل، عليه إكمال مهمته.. لم يستطع تهدئتها بأي شكل كان، فقام واقترب منها، إلى أن بات يسمع دقات قلبها المتسارعة، ثم رفع يده في عجز ليهدئها ولكنه تراجع وانحنى عليها وهمس بأذنها: «لا تصعبي الأمر عليَّ». هدأ نحيبها قليلًا فتركها، وهي ابتعدت عنه ليمسك هو بحقيبته الصغيرة ويجمع بها أشياءه استعدادًا للرحيل، وهي صامتة تتابعه ببكاء صامت، تقول بداخلها: «أحبك!»، وتنطق نظرات عينيها وتفصح بكل شيء حتى أنهى إعداد حقيبته واتجه نحو الباب وقال: «وداعًا»، ليظهر صوتها متذبذبًا وهي تقول: «هل تعلم أين دُفن والداي؟».

فالتفت إليها وقال: «أين؟».

ـ ببئر القرية، بئر قرية دير ياسين يحتوي على كثير من الجثث، والداي منهم. لا أعلم لمَ أخبرك، ولكن وددت ذلك؛ ربما لأنني لم أقله لأحد من قبل.

عاد إليها حيث تجلس على الفراش، وقال: «سأذهب لأرد لك حقك وليرتاح والداك، اتفقنا؟».

ـ وأنت من يرد حقك؟

نظر إلى عينيها وبيقين قال: «أحدهم سيفعل، لا تقلقي، سنتخلص من هذا الكابوس قريبًا».

أمسكت بيده وقالت: «سأشتاق إليك». سحب يده من بين يديها ورحل؛ إن بقي أكثر فلن يستطيع الفرار منها، ستقيده عيناها اللامعتان وابتسامتها الساحرة، سيقيده ضعفها وبكاؤها، وعليه ألا يفعل!

خان يونس!

بعام ١٩٥٦ قررت مصر تأميم قناة السويس وطردت الإنجليز منها، وكان هذا مخالفًا لعقد استئجار القناة لصالح إنجلترا، بنفس الوقت كانت الثورة الجزائرية تشتعل، فقامت مصر بمساندتها ضد الفرنسيين؛ هذان كانا أقوى سببين لشن هجوم ثلاثي على مصر من قبل إنجلترا وفرنسا والكيان الصهيوني. بوقتها أيضًا كانت غزة تقع تحت سيطرة القيادة المصرية من خلال معبر رفح، وخشي الكيان أن تُمد مصر بالأسلحة من قبل الاتحاد السوفيتي، وهذا ما كان يهددها بحكم احتلالها لمناطق عدة بفلسطين ومناطق حدودية بلبنان وسوريا، الأمر الذي جعلهم يتحدون سويًّا ويطلقون طائراتهم لتقصف برفح وسيناء بدءًا من أكتوبر ١٩٥٦. ورغم مطالبة كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة في ٣٠ أكتوبر بوقف إطلاق النار وأن يسحب الاحتلال قواته لخط الهدنة، فقد قامت القوات الفرنسية في اليوم التالي بقصف رفح، وقامت القوات الإنجليزية بضرب المطارات المصرية، وبحلول ١ نوفمبر أعلن

الكيان سيطرته على رفح وبدأ قصف قطاع غزة نفسه بحكم وقوعها تحت سيطرة مصر، حينها زعم الكيان أنه يعلم هويات الفدائيين ويتعقبهم، وعلى إثر هذا الإعلان فر نحو ١٥٠٠ شخص من الفدائيين إلى الضفة الغربية والخليل وأماكن أخرى. بوقت باكر قليلًا أدرك حسن الأمر وهرب إلى القدس حتى يعد نفسه جيدًا ويذهب لينفذ مهمته، وفي مكوثه بالقدس ببستان جدة نور كانت القوات الصهيونية قد نفذت عمليات قصف بقطاع غزة وبالأخص جنوب القطاع بخان يونس، أدى إلى استشهاد مئات المدنيين، كما كانت تقوم بإعدامات جماعية للذكور من سن الخامسة عشرة حتى الستين، كان ذلك بالثالث من نوفمبر، واستمرت هذه الكارثة حتى نهايته، لم يكن حسن على علم بشيء، كان يستعد للعودة لتنفيذ مهمته ظنًّا أن الوضع قد هدأ.

12 نوفمبر 1956
غزة

بممرات خفية لا يعلمها إلا جماعة الفدائيين عاد لقطاع غزة، وبحرص شديد كان يسير غير لافت للأنظار ومختبئًا من كل بشر يراه، يود أن ينفذ عمليته بسرية ودون ضوضاء، بباله ألف شيء أهمها أنه سيقابل ربًّا كريمًا بعد ساعات، لا يستطيع تحديد الشعور الذي يجوب داخله الآن، فقط يدعوه أن يسامحه وينقذ بلاده، يدعو لسارة ويدعو أن تشهد تحررالأوطان، وأن يهدأ غضبها وتستطيع الانتقام لأسرتها، يدعو طوال الطريق ولا يصمت، قبل

أن يصل وصلته معلومات عن قيام القيامة بحي خان يونس وأن عليه إلغاء عمليته فورًا، طريق العودة سيكون صعبًا الآن، هو عالق بالمنتصف وحزام ناسف يلتف حوله ينتظر منه ضغطة لينفجر! يحاول أن يهدئ نفسه حتى يحسن التصرف، إن عاد فهو بخطر لأن معنى هروب جماعة الفدائيين والقبض عليهم أنهم قد يكونون اكتشفوا طرقهم وأنفاقهم، وإن استمر فلن يستطيع إكمال مهمته، وهكذا يكون مهددًا بقتل أبرياء من وطنه، غير أن السترة الانتحارية التي يرتديها لن تتحمل أكثر، فهي محشوة بالمتفجرات والقطع الحديدية الصغيرة، مادة النيتروجلسرين التي تحاوط جسده هذه شديدة الحساسية، قد تنفجر إن اصطدم بأي شيء، عليه توخي الحذر والتفكير بسرعة حتى لا تحدث كارثة.

بقي عالقًا بالمنتصف يرفع رأسه للسماء ولا يجد حلًّا، ينادي ربه، يسأله إن كان قد أخطأ حين فكر بأمر كهذا، إيمانه يُختبر الآن! لماذا تعوق مسألة مهمة كهذه؟ كان سيفجر مقر إحدى العصابات الصهيونية، ما الخطأ بهذا لكي يفشل الأمر؟ يسير حذرًا لا يعلم وجهته، ماذا يفعل؟! يجد أنه الموت لا محالة، الموت يحاوطه من كل الجهات، لم يكن يود موتة سخيفة كهذه، سيموت وحده بطريق خالٍ من البشر، أخلاؤه يُقتلون على بعد مسافات بسيطة وهو عالق هنا! سيموت هنا!

خلع سترته بهدوء ووضعها جانبًا ثم فتح حقيبته، أخرج منها ورقة وقلمًا، أخذ يسطر بعض الكلمات عليها، ثم تركها مع السترة ورحل! إن كان الموت يلاحقه فليذهب هو إليه ويخبره أنه لا يخافه.

ولكني لا أقبل هذا الوداع! (٢)

كانت تجلس بالبستان، عليها أن تجمع الأزهار وتذهب لبيعها، ولكن يديها ترتجفان وقلبها يخفق بشدة، تعطل جهازها العصبي ولم تعد تشعر بشيء حولها، تشعر أنها سلمت روحًا أخرى للموت دون التمسك بها، تشعر أنها تخوض حربًا هي بها خاسرة وجبانة. نور تقف بجانبها وتحاول فعل أي شيء، ولكنها تفشل. بالبارحة كانت بجانبها، استمعت للقصة كاملة وحاولت الثبات لكي تهدئها، ولكنها لم تفلح. ومن يفلح في إعادة الموتى؟!

سارة ميتة إكلينيكيًا، أنفاسها تتصاعد عبثًا. قالت هذا لنور وهي تقص إحدى الوردات هائمة ولا تنتبه، فجرحت شوكات الوردة يدها، انتبهت لها نور وأمسكت من يدها المقص وربتت على كتفها لكي تنتبه للوردة وتتركها، ولكنها أبت، جلست أرضًا وأزاحت حجابها عن رأسها فنثر شعرها على كتفيها وقالت لنور بروح غائبة: «أشعر أن أنفاسي تتصاعد عبثًا، أتخلى عمَّن أحبهم للموت، الجميع يتركني بسبب هذا الاحتلال».

جلست بجانبها نور وأمسكت يدها قائلة: «حسنًا، اهدئي».

انهارت نبرة صوتها وقالت بعجز وهي تبكي لأول مرة أمامها: «حسنًا سأهدأ، ولكن قولي لي، نحن ما ذنبنا لكي نحيا هكذا؟! ما ذنبنا إن ولدنا بهذا الوطن الدامي؟! ما ذنبك لكي يموت والدك ولا تتذكريه؟! وما ذنبي أنا لكي لا أتذكر أمي وأبي بسوى رداء الدم؟! قولي لي وسأهدأ!».

صمتت وتحدث نحيبها عمَّا تشعر به، وشاركتها نور الصمت وهي تفكر بكل كلمة قالتها، حقًّا ما ذنبها لكي تتنقل بين بلدة وأخرى مع أمها؟! ما ذنبها لكي لا تحيا طفولتها؟! ما ذنبهما؟!

ساد صمتهما الكثير من الوقت، كلتاهما تبكي، ولكن سارة تبكي بحرارة وتشتد قبضة يدها على أشواك الوردة، فيسيل الدم من كفها، لا تستطيع أن تهدأ، لا شيء سيفعل!

قامت فجأة من مكانها وقالت لنور: «ولكني لا أقبل هذا الوداع! لن أتركه يرحل هكذا. سأذهب إليه».

لم تمنعها نور، قالت لها فقط: «أتعلمين أين ذهب؟».

ـ أعتقد أنه ذهب إلى غزة، نعم نعم، لقد قال ذلك.

نظرت إليها بحيرة وقالت: «حسنًا، إلى غزة، ولكن أين بغزة؟ هل فكرتِ بهذا؟».

نظرت لها بعجز: «لم يقل شيئًا!».

فاقتربت منها نور وأمسكت يدها، فتحتها، وأزالت الوردة ووضعتها على المنضدة، وقالت بنبرة خائفة: «نستطيع أن نسأل يوسف عن طريق جماعة الفدائيين، بالتأكيد سلك حسن هذا

الطريق، وبهذا الطريق ربما تلحقينه».

نظرت لها سارة بلهفة وقلبها يخفق فرحًا، وقالت: «تستطيعين فعل هذا حقًّا؟!».

فأجابتها مفسرة بنفس النبرة المرتجفة: «يوسف قال لي من قبل إنه سينضم إليهم، وإنه يعلم طرقهم وأنفاقهم».

قاطعتها بنفس اللهفة: «وأين نجد يوسف هذا؟».

ـ نجده بساحات المسجد الأقصى.

ـ حسنًا، هيا نذهب إليه!

يوسف شاب أشقر، عيناه عسليتان ووجهه ناصع البياض، بشوش للغاية، يعمل مع الشباب المتطوعين لخدمة الحرم القدسي، هذا ليس طموحه، هو يأمل أن يكون له أثر أكبر من هذا، ولكنه عمل مؤقت حتى يتم الثامنة عشرة من عمره. يقابل نور بين الحين والآخر، يراها فتبتسم روحه ويشع الأمل بداخله. فهؤلاء الأطفال يستطيعون الحب أيضًا، يخفق قلبه بابتسامة صغيرة يخطفها منها حين ذهابها للصلاة، ونظرات تتقابل فتسكن الروح، كلمات صغيرة يحدثها بها حين يُسمح لهما بالحديث، وهذا نادرًا ما يحدث، يحدثها عن أحلامه وتحدثه عن أحلامها أيضًا، يقول إنه حين ينتهي الاحتلال سيحيا معها بلا خوف، وهي تأمل هذا، وتتشوق لهذا اليوم كثيرًا!

ذهبت نور وبرفقتها سارة لبوابات الحرم الشمالية، كل منهما ترتدي عباءة سوداء ويلتف حول عنقها شال به خطوط بيضاء تقاطعها خطوط سوداء تمتزج سويًّا كأنها تشكل أسلاكًا شائكة. سُمِّي هذا الشال لاحقًا بشال فلسطين! دخلتا رواق الحرم من باب شرف الأنبياء، وانتظرت سارة بمكانها حين ذهبت نور لإحضاره، تعلم أوقات عمله والأماكن التي يعمل بها، وبما أنه ليس وقت صلاة فبالتأكيد هو هنا، رأته يجلس جانبًا بالأرض يسند رأسه إلى أحد الأعمدة ويبدو على وجهه الإرهاق، فاقتربت منه وانحنت تجلس بجانبه، فانتبه لوجودها وابتسم، وابتسمت هي الأخرى وصمتا! فبادرته بالحديث وقالت: «نحن بحاجة إليك بأمر عاجل».

قال لها باستغراب: «أنتم؟!».

فأجابته مفسرة: «سارة ابنة عمي بحاجة إليك».

ـ تقصدين بائعة الورد؟!

ابتسمت وقالت: «نعم هي، والآن هيا معي؛ فهي تنتظرنا عند بوابة شرف الأنبياء».

هز كتفيه في استسلام وقال: «حسنًا، هيا!».

سارا سويًّا إليها، الرياح تشتد فيطير شعرها ويداعب وجهه فيقوم بالضحك، يقول إنها جميلة وهي تكتفي بالابتسام.

وصلا إليها أخيرًا، تقف بخوف وذعر يتملك قلبها، تخاف أن يكون الوقت قد مر، تخشى أن يكون قد قابل ربًّا كريمًا! ما إن رأتهما من بعيد حتى ركضت إليهما، أمسكت بكتف الشاب وأخبرته أنها بحاجة إليه، وبأسرع وقت قصت عليه الأمر، يبدو

أنه خاف! ولكنه سيفعل ما تود منه، سيأخذها حيث هذه الطرق والممرات الخفية، سيفعل ما بوسعه لخدمة نور!

ـ والآن هل أنت مستعد لسفرة كهذه؟

أجابها وهو يدعي الثبات: «نعم، بالتأكيد».

فقالت سارة بصوت مرتجف: «أهلك؟».

ابتسم وقال: «لا عليك».

ـ حسنًا، هيا!

فقال بارتباك: «حسنًا، هل تسمحين لي بتوديع نور فقط؟».

تركتهما وتراجعت خطوات لخارج الحرم، وهو وقف أمام نور وقال بابتسامة هادئة مثله: «حسنًا، وداعًا».

فقالت له بقلب مرتجف: «الأمر ليس خطرًا، أليس كذلك؟».

أجابها مطمئنًا: «نعم، ليس خطرًا، هذه الممرات لا يعلمها غيرنا، مجرد إيصالها سهل، ولكن بالطبع يصعب أمرها بعد هذا».

فقالت له مفسرة: «لا أستطيع منعها».

ـ لا عليك، الآن سنذهب. وداعًا.

ذهبا أمام عينيها، قلبها لا يطمئنها إطلاقًا، وجملة سارة تتردد بعقلها مرارًا: «ولكني لا أقبل هذا الوداع!».

لا أقبله يا يوسف!

لا أقبله يا سارة!

لا أقبله يا حسن!

سارا سويًّا بسهول المدينة متجهين نحو الجنوب الغربي ومتخذين ممرات خاصة وأنفاقًا سرية للغاية.

لم يتحدثا سويًّا، كان يلاحظ حزنها وأنها تجاهد انفعالات وجهها لتُظهر أنها بخير، وبالواقع كان قلبها يحترق وأعصابها تتلف بمرور الوقت لا أكثر، سارا قسمًا لا بأس به، فرجح يوسف أن يأخذا قسطًا من الراحة.

بجنوب مدينة غزة، بخان يونس وتحديدًا شارع جلال، كان يقف بصف طويل كبقية الشباب في وضع حرج، كل وجه لحائط ممتد حتى آخر الشارع ويداه على رأسه، مستسلمين إليهم ينتظرون أحكام الإعدام من قبل الجيش الصهيوني. لم يكن يعلم أن الوضع بهذه الخطورة، ذهب إلى الحي ظنًّا أنه يستطيع معاونة الرجال والتصدي لهم، ولكن تصوره كان خطأ للغاية، قُبض عليه فور وصوله، ها هو الآن سيموت بين أيديهم دون أن يقتص لوطنه ولعرضه وبيته وأمه وسارة! استفزه هذا الشعور! كاد يصرخ من ألم داخله وهو يسمع دوي الرصاص يحلق بالمكان، قتلوا الكثير خلال هذه الأيام، ما يقرب من ٢٥٠ شخصًا سقطوا برصاصهم بأيام قليلة! يقتلونهم بالدور، واحدًا تلو الآخر ليُشعروهم بالذل قبل موتهم. اقترب الجندي منه؛ حان الآن دوره، كان يلفظ الشهادتين ولكن قلبه يحترق وغيظه يزداد رويدًا رويدًا، وفجأة التفت إلى قاتله الذي كان ينظر إليه نظرة انتصار وسخرية، فركله بعيدًا والتقط منه البندقية في جزء من الثانية، صوب وقتها طلقة برأس الجندي. وتبادلت ابتسامات الانتصار، يعلم أنه لن ينجو بفعلته هذه، ولكن حتى إن مات الآن فعلى الأقل سيشعر بشيء جيد قبل موته؛ ربما

ليس انتصارًا، ربما جزءًا بسيطًا منه. بعدها بثوانٍ قليلة كان أكثر من عشر طلقات تصوَّب فيه، تخترق قلبه، رأسه، وكل جزء به، يتساقط جسده بالأرض وتصعد روحه للسماء! أي روح طاهرة فقدت هذه البلاد؟!

قاما مجددًا ليواصلا السير، قلبها يرتجف أكثر فأكثر، تشعر أنها ليست بخير، وضجيج عقلها يؤلمها وينهش روحها أكثر: هل تأخرت؟! ماذا حدث له؟! كيف حاله الآن؟! انتبهت لصريخ يوسف فجأة فالتفتت لمكانه، وجدته يجلس بالأرض أمام سترة لونها أسود يلامسها بهدوء ويقول: «سترة متفجرة!»، ركضت إليه وجلست القرفصاء تلامسها هي أيضًا والذهول قد أصابها، ماذا تفعل هذه هنا الآن؟! وجدت بداخلها ورقة بيضاء مطوية، فقامت بفتحها لتقرأها..

«يا بائعة الورد! لا أعلم لمَ أكتب لك الآن، من المستحيل أن يصلك هذا المكتوب ولكني شعرت بأنني أود الكتابة إليك، اقرئي هذا الحديث جيدًا: لا تستسلمي لهم أبدًا، لا تفعلي هذا! سارت الأمور على نحو خطأ ولم تُنفذ مهمتي، هناك مجزرة الآن بخان يونس، سأذهب حتى أساعدهم وبعد ساعات سأكون قد قابلت ربًّا كريمًا، لقد أحببتك يا بائعة الورد! حقًّا أحببتك.

«حسن»

قرأت المكتوب وبكت بصمت، بقلب يحترق بكت ولم تتجرأ أن ترفع رأسها ليوسف الذي يقف بجانبها وينتظر تفسيرًا أو أن تقول له ماذا سيفعلان الآن! احتضنت الرسالة وصارت تبكي بغزارة، قلبها يحترق وعقلها يعذبها لتركها له، كان عليها ألا تتخلى عنه، كان عليها أن تتمسك به قليلًا! ولو قليلًا! فجأة قامت من مجلسها وطوت الرسالة مجددًا وخلعت شالها الفلسطيني ووضعت الرسالة به، أعطته ليوسف وطلبت منه الرحيل، رفض، فقالت له: «اذهب حتى لا تحيا نور بمفردها»، نظراته نظرات طفل خائف لا يحسن التصرف، سألها: «ستكونين بخير؟»، ابتسمت له وقالت: «سأكون كذلك».

أخذ الشال وركض إلى الشمال الشرقي باتجاه القدس؛ حيث طريق العودة، بينما هي جلست بجانب السترة تفكر فيما عليها فعله، هل تكمل السير وتذهب لخان يونس، تفجر نفسها هناك؟ وإن كانت ستستطيع فلمَ لم يفعل حسن؟ لا بد أن الأمر لا يمكن. حسنًا، هل تذهب إلى الحي دونها؟ حقًّا ماذا ستفعل؟! استغرق تفكيرها مدة طويلة، فجأة سمعت أصوات أقدام تسير بعنف وطفل يصرخ بين أيديهم، التفتت وإذا به يوسف! نظرت إليه، كان بين أيدي خمسة جنود يسحبونه بعنف ويضربونه بقوة! رآها فصرخ بصوت مبحوح مفسرًا لها: «لا أعلم من أين عرفوا هذا الطريق، اهربي».

في لحظات قليلة كانوا قد وصلوا إليها، تجمدت بمكانها، الآن لا عودة! ويوسف أيضًا! نظرت إليه فكان الجندي يركله ويقول: «إذًا، هذا ما كنت تخبئه ولا تود أن تعود لأجله، ماذا تفعلين هنا يا جميلة؟»، اقترب منها فأمسكت بالسترة الانتحارية وقالت ليوسف: «أين الشال؟».

قال وهو يدفعهم بعيدًا عنه ويقاوم ركلاتهم وضربهم له: «تركته عند شجرة الزيتون».

كان الجندي يقترب أكثر منها ولا يدرك ما معنى السترة التي تحملها بيدها، نظرت ليوسف بيأس وقالت: «تسامحني؟».

انهمرت الدموع من عينيه ونظر إليهم ولأسلحتهم المصوبة لرأسه، وقال: «لا مفر منهم اليوم. أسامحك ولتسامحني نور».

هي تعلم ممَّ صُنعت هذه السترة، تعلم أن باهتزاز خفيف تنفجر مادة النيتروجلسرين بداخلها انفجارًا هائلًا، يُحرق به هؤلاء الجنود ويُحرق قلبها ويموت يوسف! نظرت إلى السماء ونطقت الشهادتين وقامت بهزها بعنف دون تردد.

انفجرت المادة والسترة والمكان كله، صعدت روحها الطاهرة للسماء، صرخات الجنود حين أدركوا الأمر وبكاء يوسف.. كل شيء ذهب. انتهت القصة كما يجب أن تنتهي دومًا!

انتهت القصة، صمتت نور وهي تتابع بكاء أروى المستمر، تجلس بجانبها بالفراش ونحيبها يعلو وصريخها يعلو حتى كاد الجيران يسمعونه، احتضنت نور وقالت لها بصوت متألم ونحيب عالٍ: «حسنًا، وأنتِ كيف وصلك الشال والمكتوب؟».

فأجابتها: «كانت سارة قد كتبت العنوان على ظهر المكتوب، وأحدهم شهد الحادثة وجاء بالشال وقص علينا الحادثة، حينها لم تتحمل جدتي وتوفيت، وكان علينا أنا وأمي الهرب».

أروى أضعف من نور، نور تقص القصة بتماسك وقلب صلب وكأنها لا تتعذب من داخلها، تذكرها لهذه الأيام يقتلها ويقتل روحها ويمحي بها كل شعور، يجردها من كل شيء ويبقيها تعيسة، وحيدة، وتائهة.

ربتت على كتف أروى وأخبرتها أن تقوم لتذهب لعملها، فأخبرتها أنها لا تستطيع أن تواجه العالم اليوم، اليوم ستبكي وستجعلها هي أيضًا تبكي؛ لأن تيبس المشاعر هذا ليس جيدًا، ضحكت وقالت لها: «ولكنك تعلمين ما سيلين مشاعري!».

فأمسكت يدها وقالت بنبرة جادة: «حسنًا، هل نذهب لمراد؟».

أبقيكِ بداخلي!

يتناول المسكنات بكثرة هذه الفترة، والصمت يخيم بمنزله كأنه صديق جديد، فور ما يحل الصباح تجده منزويًا بركن من أركان الغرفة ينتظر أن يفيق، يظنه كابوسًا ولكنه ليس حلمًا، هذا ليس خيالًا، هذا هو الواقع، والواقع قاسٍ يا عزيزي. لم يعد يشغل الراديو؛ أخبار الحرب تخرب داخله أكثر، يحارب نفسه لكي ينهض، ويحارب نفسه لكي يتناول الفطور، يحارب نفسه ويهرب منها قليلًا. الرجال أيضًا يبكون، علم هذا مؤخرًا، ولكن رغم حالته النفسية هذه فإن العمل على ما يرام، على غير العادة استطاع الحرب دونها، أو إنها عادة الرجال أن يتماسكوا حتى بالأزمات، ولكن اليوم لن يقدر على النزول للمكتب؛ أصابته الحُمَّى على الأغلب لذلك سيرسم مشروعه الجديد بالبيت، وضع الأدوات الهندسية وأوراق المشروع الجديد، وأعد قهوة مرة لا يحتسيها غيره، وجلس يتفحص الأوراق ويقرأها بدقة رغم إعيائه الشديد، ولكنه لم يبدأ؛ فقد دق جرس الباب على غير العادة.

نصف حياة!

إن أمور الحرب لا تشبه شيئًا على الإطلاق؛ من لم يذُق عذاب التهجير، أو لم يصبح جنديًّا بلا سلاح في معركة محسومة بها خسارته من البداية، فهو لم يذُق شيئًا على الإطلاق؛ لا شيء يضاهي هذا الألم. تتوالى الغارات الجوية على سيناء ولا يوجد شيء يمكننا فعله، البلاد خرجت من حروب وثورات للتو، لم يكن الجيش مستعدًّا لمواجهة غاصبة كهذه، أو إن أحدهم تخاذل في إنقاذ البلاد، أيًّا كان الحدث فإن المرض تفشى في باقي الجسد ويجب استئصاله قبل أن تموت الروح ويصبح الجسد هشًّا هزيلًا بلا قيمة.. خروج رئيس البلاد بوقت كهذا ليعلن بوقاحة بالغة تخليه عن البلاد، فيدعوه الأذلاء لِئَلَّا يتركهم، كان مهينًا بكل المقاييس. حسنًا، لقد كان موقفًا لا داعي له بوقت حرج كهذا، وكأن البعض يظنون الوطن دميتهم الصغيرة، وبالأساس التحكم به بهذه الطريقة الطريفة في صالحهم هم لا الوطن، شيء كالتظاهر بأن كل شيء بخير وكل شيء ينهار بالحقيقة.

كان الموقف يشتعل بالجريدة، أقام عمر اجتماعًا طارئًا لكل الصحفيين ليروا ما باستطاعتهم فعله لتهدئة الوضع دون إنكار الحقيقة، وكيف يخبرون الشعب أن ذلك الكيان يدمر وطننا نحن أيضًا، كما أنه لم يكن هو فحسب فقد كان الهجوم على دول عربية أخرى كسوريا ولبنان والأردن، كان عمر يشعر بالأسف الشديد حيال ذلك، يقول للصحفيين أتباعه: «إن المخزي أن جميعنا سقطنا أمامهم وهُزمنا، كيف نصارح الشعب بشيء كهذا؟! وإن كان هذا حالنا نحن، فما حال من تركوا أرضهم وبيوتهم وأحلامهم؟!». الموقف كان يُعجزه هو أكثر من اللازم، لوهلة تخيل لو أن نور بهذا الاجتماع، كانت لتتدمر، من الجيد أنها ليست هنا، دام الاجتماع ما يقرب من ست ساعات ونتائجه أن الحقيقة خرجت دون تخفيف لآلام الشعب إطلاقًا، بالنهاية هذا وطنهم ويجب معرفتهم الحقيقة كاملة.

مناوشات قتالية على حدود البحر المتوسط، يفشل العدو في احتلال المحافظة الساحلية بورسعيد؛ رغم تعرضها للقصف الشديد فقد كان الدفاع قويًّا بما يكفي للرد على الكيان الصهيوني، كان هذا في ١ يوليو. لحقه قصف آخر بالثامن من يوليو. ورغم تقرير مجلس الأمن باليوم الذي يليه مباشرة بوقف إطلاق النار بالسويس، فإن المناوشات تكررت مجددًا بالثاني عشر من يوليو، كما قُصفت الإسماعيلية والسويس باليوم ذاته.

أروى ترى الأخبار وتهدئ نور، بالحقيقة الاثنتان كانتا بوضع حرج، الأمور لا تسير معهما على ما يرام إطلاقًا.

بوسط الحلمية، ببيت أروى الصغير تجلسان بحجرة صغيرة تنصتان للمذياع بيأس، تنتظران أي رد من أي دولة، هذا كان مستحيلًا بوقت كهذا، تتبادلان النظرات القلقة ثم تبكيان. يرن الهاتف مرارًا، لم تشأ أروى أن تجيب؛ تعلم أنه عمر، تخاف أن تخبره أنها عادت لظلمتها وخوفها مجددًا، كانت قصة نور قد نبشت بماضيها وذكرتها بتلك الطفولة الحزينة التي حيت بها؛ كانت بالسابعة حين تلقت خبر وفاة والدها، حينها كانت تحيا بالمنصورة مع والدتها وجدتها، تتذكر أنها لم تودع والدها قبل رحيله وأنه رحل أثناء نومها، وظلت تبكي أيامًا حزنًا على ذهابه، وتتذكر حين أتى صديقه ببدلته العسكرية وسلاحه يخبرهم باستشهاده بالحرب، وأن الكون توقف حينها، وأنها اختبأت برداء جدتها تتابع أمها وهي تصرخ وتنهار قامتها، تتذكر هذا الشعور وتتألم لأجله كثيرًا. لا تشارك نور تلك الذكريات، تقول إنها عاشت ما يكفيها لتحزن ويتدمر قلبها، تحيا ذكرياتها وحدها وتنزوي بركن السرير تتابع رنين الهاتف وعقلها غائب، تفكر بما ستفقده بهذه الحرب، الحرب الماضية فقدت والديها وجدتها وعاشت وحدها بمراهقتها وتركت منزلها بالمنصورة ونزلت القاهرة حتى تبني مستقبلها، ترى ماذا ستفقد بهذه الحرب؟! الهاتف ما زال يرن، وما زالت تعلم أنه عمر، يلح كثيرًا ولا تتحمل تعذيبه أكثر، تخاف أن تتعلق به أكثر فتفقده، ولكنها لا تستطيع التحمل أكثر فتجيب.

«على الأغلب اعتدتِ الهروب»، أتاها صوته متعبًا ومرهقًا، يبدو عليه اليأس، ولم تعهده هكذا.

تتنهد وتسأله عن حاله، فيجيب بأن الوضع لم ينقصه رحيلها.

ينبعث منها نحيب متقطع ولا تجيب، تفلت أعصابه ويقول بغضب: «لمَ تحببن الرحيل هكذا؟».

ـ نحن من؟

ـ أنتن، أنتِ ونور والنساء.

اهتزت نبرة صوتها وقالت: «نور».

تنظر إليها وهي منزوية بركن من السرير، وتصمت، فيقول إن مراد أيضًا كاد يفقد عقله، يخبرها عن حاله بعجز ويأس ولا يجد منها جوابًا؛ فقد أعطت سماعة الهاتف لنور حين بدأ يتحدث عن مراد، ونور بدورها استمعت إليه وكتمت بكاءها وعادت إلى مكانها.

عادت أروى لتحدثه مجددًا، وقالت محاولة تغيير جو المكالمة: «كيف تسير أمور الجريدة إذًا؟».

ـ نحتاج إليك أيضًا، ونحتاج إلى نور؛ أنا لا أجيد فعل شيء دونكما، حقًّا هذا الوضع لم يلائمه هروبكما.

ولكنه ليس بحال يصلح لتغيير الحديث؛ هو حقًّا تائه وفاقد الأمل!

أجابته محاولة تهدئة الوضع قليلًا: «حسنًا، سآتي غدًا».

أغلقت الخط ونظرت إلى نور: «نعود؟».

صباح معتم!

فتح الباب، وكان شرطي ينتظره ووجهه يوحي بالقلق قليلًا – أو هكذا شعر هو –، نظر إليه باضطراب وقال: «ماذا هناك؟»، فأخبره أن مأمور القسم ينتظره بمكتبه عاجلًا، ودون أن يبدل ملابسه أغلق الباب في عجلة ونزل معه. دقات قلبه تعلو، تكاد أن تهشم صدره، يحاول أن يمحي أفكاره السوداء التي تحوم حوله ولا يقدر، تسود الدنيا في عينيه للحظات وتعود بعدها الرؤية، لم يسأل الشرطي فيمَ يريده المأمور، خشي سؤاله، خاف أن يؤكد له فكرة أنها ماتت حقًّا ووجدوا جثتها، ظلت هذه الأفكار تطارده حتى وصل إلى مكتب المأمور، تردد كثيرًا بالدخول ولكن بالنهاية دخل، همَّ السيد من مجلسه وصافحه بحرارة ثم دعاه أن يجلس، ودار بينهما حوار مخيف ومضطرب:

ـ كيف حالك؟

بادره مراد بنبرة مترددة: «وجدتموها؟».

ـ على الأغلب.

ـ كيف على الأغلب؟

ـ الجثة التي وجدناها مشوهة قليلًا، ولكنها تطابق مواصفات زوجتك.

زاد توتره وارتعشت أنامله وهو يقول: «جثة؟».

ـ أستاذ مراد، إذا أردت فاتصل بأحد معارفك ليكون بجانبك في المشرحة.

ربما سويًّا نتخطى أمور الحرب!

مقر الجريدة، شارع التحرير
الساعة الحادية عشرة مساءً

ترددت كثيرًا بالدخول، تقف أمام الباب منذ بضع دقائق، حالتها مجددًا مزرية، ثوب أسود طويل وشعر مبعثر وعينان قلقتان وأنامل ترتعش، أروى تخاف كثيرًا، تخاف الحرب، تخاف أن تسلبها حياتها الجديدة كما فعلت من قبل، بصعوبة تماسكت ووقفت، حرب أخرى معناها خراب آخر، أن تصبح بلا وطن، وهذا لن تستطيع تحمله. دقت الباب أخيرًا ثم دخلت، كان يجلس إلى مكتبه منهمكًا بالعمل، الأوراق والمستندات تلتف حوله في دوائر كأنها تخنقه، خلع رابطة عنقه وتركها جانبًا منذ فترة، وأكواب القهوة متراكمة بالمكتب كأنها تصرح بانتهاء طاقته، انتبه لوجودها منذ فترة ولكنه ينتظر منها أي فعل ولا يوجد، سئم من مكوثها صامتة فرفع وجهه من كومة الأوراق ثم نظر إليها بيأس ودعاها لتجلس.

ترددت قليلًا ثم قالت: «ماذا تفعل؟».

ـ تعلمين الوضع، علينا تهدئة الشعب قليلًا.

فقالت له فجأة: «هل توافق على تنحي الرئيس بهذا الوقت؟ ستدعوه لِئَلَّا يرحل؟».

أجابها بيأس وهو يهز كتفيه معلنًا الاستسلام: «ليس أمامي حل آخر».

ـ لا تفعل.

نظر إليها بعجب وقال: «ماذا؟».

حاولت أن تنظم أنفاسها المتسارعة وتسيطر على نبرتها الهائجة، وقالت: «على الأقل أنت لا تفعل يا عمر، سيفعل الجميع هذا ولكن أنت لا، أن تدعوه معناه أنك بحاجة إليه، وهو من تخلى عن وطن كامل بعدما أغرقه».

فقال موضحًا موقفه لها بصوت هادئ ونبرة منتظمة، كأنه يفسر الأمر لقاضٍ أو ما شابه: «أروى، أفهمك. ولكن هذه بالنهاية مسرحية من السلطات لكي يهدأ الشعب تجاه الحكومة، إن لم نفعل هذا فسنضع أنفسنا بورطة ونحن من أكبر الجرائد بالبلد».

نظرت إليه بخيبة أمل، ثم مجددًا قالت: «على الأقل لا تفعل أنت».

صمتت قليلًا، وهو كان يحدق بملامحها المرهقة وعينيها المتعبتين، لا يقوى على رؤيتها بهذه الحالة، وليس بيده ما يفعله، كيف يطمئنها؟ كيف يوقف الحرب أو يقنعها بأنه وضع لا يدعو للخوف؟ هَمَّ من مجلسه والتقط يديها وقال لها: «تعالي معي»،

أوقفته بحرج وقالت: «إلى أين؟».

جذبها دون التفوه بأي شيء آخر، وخرج من مقر الجريدة واتجه إلى الطريق العام، كانت تحاول فهم ما يفعله ولكنه لم يجبها، وظل يمشي بالشارع طويلًا متمسكًا بيديها بين قبضته حتى توقف أمام كورنيش النيل..

كان النسيم عليلًا والهواء يُطَير خصلاتها السوداء للوراء، وقف قبالة النهر وفعلت هي أيضًا، يصطدم بهما الهواء ويبتسمان دون سبب، أغمض عينيه وقال لها: «تنفسي جيدًا»، ثم أمسك يدها وقال: «والآن، أغمضي عينيك». كانت تفعل ما يقوله دون سؤاله، كان واضحًا أنه يود أن يُحسن من حالتها، وهي أحبت ذلك كثيرًا، ثم تقدم بها خطوتين للأمام وقال: «والآن، افتحي عينيك وقولي، ماذا ترين؟».

ابتسمت ثم قالت: «أرى النهر».

ـ تستطيعين وصفه؟

ـ مياه؟

ـ أتظنين أنها راكدة؟

ـ بالتأكيد ليست كذلك، ها هي تتحرك.

قاطعها قائلًا: «تتصارع بداخلها يا أروى، الأمواج بداخلها تتصارع».

نظرت له وقالت: «ماذا تقصد؟».

ـ أعني أنه من الممكن أن تخوضي صراعات داخلك ولكن لا تظهريها لجميع البشر، بالنهاية لن يفيدك

الخوف، بل سيعطلك؛ من حقك أن تحزني وتخافي ولكن بقدر معين.

ثم اقترب منها، وأمسك رأسها وقال: «وضعك هذا يقتلني».

نظرت له بحزن وقالت: «أتأسف حقًّا».

فجذب رأسها الصغير لموضع قلبه وقال: «بل أنا أتأسف لأنني تركتك تخوضين حربك بمفردك».

ظلا ساكنين قليلًا، وربما كثيرًا؛ فقد ظهر نور الصباح وهما بهذه الحالة، لا يتحدثان، يتابعان أمواج النهر الهادئة، والنسيم يداعب خصلاتها فتطير على وجهه ليبتسم ابتسامات صغيرة وساحرة، حتى كسر الصمت الذي يخيم بينهما وقال فجأة: «تذهبين معي لحفل؟».

ابتسمت والتفتت إليه متسائلة: «حفل ماذا؟».

ـ أحد رجال الأعمال ينظم حفلًا لكي يجمع شتات الوطن ويخبر القادة أنه معهم وبجانبهم.

ـ ضحكت في سخرية وقالت: «حقًّا؟!».

بادلها الضحك وقال: «علينا الذهاب، شأن الجريدة ليس قليلًا».

صمتت وعادت لتنظر إلى النهر، فقاطع سكوتها مجددًا وقال: «تذهبين معي؟».

فقالت برفض مصطنع وطريقة طفولية: «أفكر، ولكن..».

بادرها وقال: «ولكنك لم تعلمي من سيُحيي هذا الحفل».

نظرت إليه متسائلة، فقال: «شمس صقر عازفة البيانو، ومعها أيضًا عازفة الكمان المشهورة آسيا».

اتسعت عيناها بدهشة وقالت: «تتحدث بجدية؟!».

ـ ألم أقل إنه حفل مهم؟ تأتين معي؟

ابتسمت وقالت: «بالطبع أفعل».

عليَّ تحمل الألم
إن كنت أنا المخطئ!

على نحو آخر، كان مراد قابعًا بمنزله ينظر لصورتها بحرقة، يقول لها: «أين أنت؟ فلتظهري وتنهي هذا الجدال»، يظنون أنه قد جُن؛ تعابير وجهه توحي بذلك، عيناه الحمراوان وشعره المبعثر وتصرفاته الهوجاء توحي بهذا، قضى ليله بزاوية غرفتهما، يدعوها لتظهر فقد طالت عتمته، يقول إنه السبب برحيلها ويلوم نفسه، وإنه قد خان عهدهما، وهذا عقابه بالدنيا، يصرخ ولا يُسمع صوته، يصرخ بداخله ويحترق.

رنين الهاتف يوقظه من ظلمته، يقوم مسرعًا ليجيب، يتمنى لو تكون هي، لو يسمع صوتها لمرة واحدة، لو يهدأ ويطمئن قلبه ثم بعدها يحدث ما يحدث!

قام من غرفتها وخرج لممر الطويل، التقط سماعة الهاتف.

ـ صباح الخير.

ـ صباح الخير، المهندس مراد كامل؟

ـ نعم، أنا.

ـ رجل الأعمال ممدوح حفني يدعوك لحفله اليوم.

قال له متسائلًا: «أي حفل؟».

فجاءه الصوت مفسرًا: «حفل يضم كبار المناصب بالبلد، يقام اليوم الساعة السادسة مساءً بقصره بعابدين، كما يدعو الصحفية نور زوجتك».

ـ حسنًا، سأرى!

أغلق الخط ولم تزده المكالمة سوى هَمٍّ، هذه الحفلات لكي يعلنوا اتحادًا زائفًا بينهم، وبها يسهُل كثير من الأمور بعدها، مناقصة أو قرض، استغلال الأمور السياسية من هوايات أوغاد البلد، ولكن ما دخله هو وزوجته؟! نور ليست مصرية حتى تحضر حفلًا كهذا، وهو؟! هو ليس له علاقة بالسياسة إطلاقًا! منصبه بالوطن كبير ولكنه يحافظ عليه بعيدًا عن السياسة؛ فالسياسة تلوث الحياة! يقول هذا دائمًا وكان يحاول إبعاد نور عنها حتى لا تتألم ولكنه لم يفلح، ظنت دائمًا أنه يود أن يلغي كيانها ويبعدها عن عملها، وهو كان يسأم من تفسير نفسه لها، خوفه وهواجسه وقلقه عليها، كان يقول: «أنا أخاف منك وعليك!»، هي تؤلمه بتفكيرها وظنها السيئ به، وتؤلمه بخوض حروب قد تؤذيها، مقالاتها بالجريدة كانت تجرح الكثير من أبناء الوطن، هكذا كان ردهم عليها، كانت تلتزم الصمت أحيانًا وأحيانًا أخرى يغلبها الألم وتبكي له، وبكلتا الحالتين لم يستطع إيقافها عن الكتابة! كانت تقول له: «أنا أحيا

بالكتابة يا مراد»، وكان يجيبها: «وأنا أحيا بابتسامة منك؛ لذلك أود منك ترك ما يخفي ابتسامتك»، كلماته هذه كانت تقتلها وتزيد من ألمها فقط، يتذكر كل هذا ويبتسم في انكسار، يود لو يعود كل شيء كما كان، بجميع المشاكل والصريخ خاصتها، ولو تصرخ فيه بلهجتها الشامية التي تحيي أجزاءً ميتة بقلبه.. حسنًا، يكفي ألم بهذا القدر! سيذهب للجريدة ليقابل عمر، عليه أن يسأله عن صديقتها أروى؛ ربما تعلم أي شيء.

وهي أيضًا تجلس بزاوية الغرفة تنتظر عودة أروى، تركتها منذ البارحة ولم تعد، قلق قلبها وربما ذُعرت ولكنها التزمت الصمت وسكنت، بزغ الفجر وظهر نور الصباح ولم تعد بعد، قامت من مكانها وتحركت قليلًا بهدوء، فتحت المشربية قليلًا لترى بعض البشر، المكوث في المنزل متعب، متعب وممل للغاية، كاد يُهلك عقلها ويدمره، مرت ساعات قليلة ودارت حياة الشارع، من يذهب لعمله ومن يذهب لدراسته، الجميع يتحرك وهي تتابعهم من النافذة، كم قاتل هذا الشعور! رأتها أخيرًا من بعيد آتية ومعها عمر، أغلقت المشربية على الفور وتابعتهما من ثقوبها الخشبية المزخرفة، لكن عمر كان قد لمح حركة المشربية بالأخير، نظر لأروى بقلق وقال: «تعيشين بمفردك؟».

- نعم.
- ولكني رأيت أحدهم بشباك بيتك.

تظاهرت بالخوف وقالت: «حقًّا؟!».

ـ نعم، أنا متأكد.

ـ ربما صاحبة البيت.

ـ ماذا ستفعل صاحبة البيت بهذا الوقت؟!

نظرت إليه وحاولت التشويش على الأمر بطريقة لبقة: «إنها سيدة غريبة الأطوار قليلًا، تمكث بمنزلي كثيرًا لتطمئن على الأثاث. لا تقلق».

ولكن نظراته ما زالت مضطربة، أخبرها أنه غير مطمئن ويود أن يصعد ويفحص البيت بنفسه، لم يفاجئه رفضها، فأخبرها أن تنتظره بالأسفل حتى يفحص البيت فرفضت وأصرت، كان قلقًا، وقلق من ذعرها الغريب هذا، ولكنه استسلم لها بالنهاية وقال: «حسنًا، هاتفيني حين تتجهزين للحفل». شعر أن وراءها شيئًا ولكنه فضل الصمت الآن، كل شيء سيظهر لاحقًا.

قبل أن يذهب وقبل أن تصعد هي لمنزلها، ظهر مراد من بعيد يسأل المارة عن بيت السيدة صوفيا التي تسكن به أروى، فقد ذهب للجريدة وأخذ عنوانها من هناك، وما إن رأى عمر حتى لحقه، وناداه حتى إنه لحق أروى قبل صعودها!

تسمرت الفتاة بمكانها فور رؤيته، اشتدت أعصابها وظهر عليها التوتر والخوف، كانت تنظر للمشربية وهي مؤمنة أن نور تتابعهم من ورائها، تحاول إدراك الموقف وكيف ستكون حالتها، ولكن كل شيء بدماغها قد تعطل، حتى الوقت! بلمح البصر كان يقف أمامها، صافح عمر واقترب منها قليلًا وعرف نفسه لها،

هي تعرفه، بنيته القوية قد تخاذلت قليلًا ولم يعد وجهه مشرقًا، ربما أطال لحيته وأهمل شعره، وربما عيناه أيضًا بهما لمعان يظهر بانعكاس شعاع الشمس عليهما، منطفئ هو، منطفئ ومخذول! كانت تتفحص شكله بتوتر، ملابسه غير المتناسقة وحالته! لاحظ عمر خوفها أو نظراتها المريبة، فقام بفتح الحديث بينهم وقال له: «خير يا مراد؟».

ظهر صوته المنكسر وقال: «تذكرت أروى، هي صديقة نور المقربة، أخذت عنوانها من الجريدة وأتيت لأسألها عنها».

ثم نظر إليها باستغراب وقال: «أنت بخير؟».

انتبهت لحديثهما وقالت: «بخير بخير، ماذا هناك؟».

فنظر إليها عمر باستغراب هو الآخر وقال: «(ماذا هناك)؟! مراد يسألك عن نور؛ ماذا يعني (ماذا هناك)؟!».

فقالت بتوتر بالغ وملحوظ: «نور؟! أنا لا أعلم عنها شيئًا، هي مفقودة».

ضحك مراد في سخرية وقال: «أنا أعلم أنها مفقودة! هذه زوجتي! أتيت لأسألك إن كانت تحدثت معك بالفترة الأخيرة أو ما شابه».

ـ لم تفعل.

قالت هذا بعصبية، فأمسك عمر بمعصم يدها وقال: «حسنًا، اهدئي»، بينما اعتذر مراد ورحل.

ربما ثارت شكوكه قليلًا، ولكنه لا يستطيع فعل شيء أكثر من هذا، على الأغلب لن يجبرها على الكلام، ولكن حقًّا ما وراءها؟ طريقتها وحركاتها توحي بأنها حمقاء وكاذبة، اكتفى بهذا الحديث ورحل، ربما عليه البحث وراءها.

أما عمر، فقد سألها عن حالتها هذه، فادعت التعب والإرهاق وأنها لم تنَم كل هذا الوقت، وتركته وصعدت.

نور

رأيتك منذ قليل، إن قلت إنني كنت أنتظر رؤية أحدهم بشكل هستيري، وفجأة ظهر أمامي بهذا الشكل المفاجئ! لم أكن أصدق ولكنك فعلت، كأنك كنت تشعر بي! كيف حالك؟ بدا على وجهك الإرهاق، بدا على جسدك أيضًا، جسدك أصبح نحيلًا وشعرك مبعثرًا، ماذا فعلت بك يا مراد؟!

صعدت أروى مسرعة إليها تتحدث بصعوبة وتتنهد من الخوف، رأتها تبكي أمام المشربية، ضمتها وباتت تبكي بحضنها وهي تربت على كتفها وتكتفي بالصمت. لا تعلم لمَ تحدثت بهذه الطريقة بالأسفل، ولكنها ارتبكت وخافت ولم تستطع التفكير، ظنت أنها تحميها بهذه الطريقة ولكنها دمرت الوضع على الأغلب!

الحفل!

خطت بقدميها الصغيرتين بعض الخطوات بقاعة دائرية فاخرة، أطرافها مزودة بضوء ملون يرهق النظر، بها عدة نوافذ عظيمة تطل على عدة شرف متصلة ببعضها البعض من خلال القاعة لتراها نجوم السماء مثل الوردة الملونة، أثاثها حديث يعاصر الجيل الحاضر ولكن لا يعاصر عنصرًا واحدًا فقط: البيانو الأسود المستقر في إحدى الشرف العملاقة، والذي يؤنسه القمر في هيئته غير الكاملة (هلال) وبعض النجوم الساطعة في سمائه. خطت نصف القاعة وهي غير مدركة إلى أين تذهب وهو يمسك بيدها، غائب عقلها بنور وحالتها التي تركتها بها، ولكنها أصرت على الذهاب بل إنها أعدت لها الثياب، فستانًا ورديًّا طويلًا يُظهر كتفيها، ولأول مرة ترفع شعرها لأعلى على غير العادة، وبعض الخصلات الصغيرة تواري لمعان عينيها من وقت لآخر، أخذها عمر من أمام بيتها بالحلمية، منذ وقتها وهي غائبة عن الوعي، لا تدرك أي شيء طوال الطريق حتى حديثه معها ومغازلته لها، تكتفي

بالابتسام، وبعقلها نور وفقط وأن الكون أنهك قلبها بالحروب منذ كانت صغيرة، ألم يتوجب على شريك حياتها أن يكون ملاذها من الكون؟ إذًا لمَ لم يحدث هذا؟! لا توجد سعادة كاملة، ولكن لا تحيا السعادة إطلاقًا؟! لمَ أصبحت سجينة عقلها بهذه الطريقة؟! لمَ لم يحبها العالم؟! ولمَ تتألم بهذه الطريقة؟! قلبها يتألم على صديقتها، وتكاد تبكي وتفسد كحل عينيها، تحاول الثبات حتى لا يسألها عمر، تحاول الثبات لأنها تمثل اسم الجريدة أيضًا، ذهبا وقابلا بعض الأشخاص، عرفها عمر عليهم وابتسمت رغمًا عنها وصافحتهم، كانوا يتحدثون عن أمور البلاد وكيف تتوغل الحرب بكل شيء وتدمر تجارتهم ومصالحهم! لم تشأ التدخل بالحديث حتى لا تخربه، عليها اليوم الصمت والابتسام فقط! لم يتفاعل عمر أيضًا معهم، كان يستمع إليهم ويبتسم هو الآخر، حتى بالنهاية جذبت يده وقالت: «أمجبران على الوقوف معهم؟».

ـ ماذا تودين أن نفعل؟

هزت كتفيها في يأس وقالت: «ما أدراني أنا؟ ربما نشرب شيئًا ما وننصت للموسيقى!».

ضحك في سخرية وقال: «ولكن علينا التفاعل مع الحضور أيضًا؛ وإلا فلمَ أتينا؟!».

عبس وجهها وقالت: «كما تريد».

جذب يدها وتقدما لرجلين يبدو عليهما العظمة والوقار، البدلة السوداء والكتف المفرودة، القامة الطويلة، الهيئة المهيبة هذه! صافحهما عمر وقدم إليهما أروى.

ـ أروى، المسئولة عن أخبار الفن بالجريدة.

صافحها أحد الرجلين وهو يرمقها بنظرة إعجاب، قائلًا: «بالطبع فن، كنت لأستغرب إن تدخلت هذه الجميلة بأخبار السياسة».

سحبت يدها من قبضته وابتسمت رغمًا عنها قائلة: «لو أنك رأيت نور لما قلت هذا».

ـ من نور؟

بادر عمر وأجاب: «الصحفية الفلسطينية، نور شاهين، تعلمانها».

هز الرجل رأسه وأغمض عينيه مدعيًا اليأس وكأنه يقول لعمر: «نعم، لقد عرفتها»، بينما تحدث الرجل الآخر وقال: «رأيت زوجها منذ قليل».

تحدث عمر متسائلًا: «مراد كامل هنا؟!».

ـ نعم، هذا المهندس الوسيم هنا ولكني لم أرَ زوجته.

أصاب عمر وأروى الدهشة وتجمدا بمكانهما يتبادلان النظرات القلقة، ماذا قد يفعل مراد هنا؟! حالته بالصباح لم تكن تسمح بخروجه، لم تكن تسمح بأي شيء، وهذه الحفلات لم يكن يتواجد بها من الأساس، لم يكن له علاقة بالسياسة؛ فماذا يفعل هنا؟!

تركا الرجلين ووقفا يتبادلان أطراف الحديث ويتشاركان ثورة أفكارهما سويًا، قال عمر بعجب: «ماذا قد يفعل مراد هنا؟!».

فأجابته مدعية عدم معرفتها به: «تعجبت أنا أيضًا، خاصة بعد حالته بالصباح، ولكن إن كان له علاقات سياسية فهذا طبيعي».

- لم يكن أبدًا!

- من أين تعلم؟

فقال مفسرًا: «مراد كان يفعل ما بوسعه حتى تترك نور العمل بالجريدة، حتى يُبعدها عن السياسة وما شابه».

فجأة ظهر مراد قبالة أروى، يقف مع امرأة شقراء ويحتسي شرابًا، يبتسم ابتسامات صغيرة ولا تظهر عليه السعادة ولكن يظهر أنه بخير، بخير للغاية؛ ها هو يتبادل أطراف الحديث مع إحداهن، ملابسه متناسقة وشعره ولحيته ينيران وجهه، تعطيه بدلته السوداء وقارًا، تشيط أروى غضبًا وقد ظهرت على ملامحها الغيظ، فسألها عمر ما بها، أشارت له إلى هذا المشهد، فتعجب للأمر هو أيضًا وقال لها أن يذهبا له، ذهبت معه وملامحها ما زالت غاضبة كأنها كشفت خيانة حبيبها هي لا حبيب صديقتها، رمقها مراد بنظرة مصطنعة الغضب وقال: «ولكن لا يمكن أن تكوني غريبة الأطوار كلما أراك، لا يليق بوجهك الجميل».

تعجب عمر لحديثه ووضع يده على كتفها قائلًا: «تمهل قليلًا يا هذا».

فابتسم والتقط كأسًا وقال: «لا عليك، لا تغضب أنت الآخر».

فصرخت أروى به فجأة وقالت: «أنت ماذا تفعل حقًّا؟!».

حينها همست الفتاة الشقراء بأذنه ورحلت، وهو نظر لأروى وبقسوة قال: «ماذا أفعل؟!».

فقالت موضحة: «كنت تحترق بالصباح من شدة الحزن على زوجتك!».

فشرب كأسًا أخرى وقال: «على الأغلب لن أوقف حياتي لأجلها، إن اختارت الرحيل فما ذنبي أنا؟!».

ثار غضب أروى وكادت تواصل ثورتها عليه وتوبخه، ولكن عمر قد أمسك بيدها فجأة وحثها على الصمت، ثم ربت على كتف مراد وهمس بأذنه: «من رأيي ألا تضغط على نفسك هكذا، لا يُعد انهيارك ضعفًا».

ثم التقط يد أروى مجددًا ورحلا، هو أيضًا لا يفهم شيئًا ولكنه لن يصرخ به مثل أروى على الأغلب، النساء يبالغن في ردة فعلهن، ولكن هذا يكون لسبب ما، فهن يحببن بصدق ولا بأس من جزء أمومة بالمنتصف، أما الرجال فالعاطفة لديهم محكمة بالعقل وبقوة! لهذا السبب نصحه عمر ورحل لأنه يعلم أنه يكذب على نفسه ويدعي القوة، أما عيناه فتفصحان عن انكسار بالغ؛ العيون لا تستطيع أن تكذب مهما فعلت يا مراد!

تصفيق بالغ وإعلان وصول العازفتين، عازفة البيانو كفيفة، وهي أسطورة الشرق الأوسط بالعزف على البيانو، أما عازفة الكمان فإنها تخلق سحرًا بيدها وليست ألحانًا، كان من الطبيعي أن توافق أروى على الحضور بوجودهما.

بدأتا العزف، وبدأ القليل من الناس بالرقص على ألحانهما، وبدأ الحفل! حاول عمر تهدئة أروى قليلًا حتى توافق على الرقص معه، ولكنها لم توافق؛ فأعصابها تالفة وروحها تتألم، اكتفت بسماع موسيقاهما والإنصات إليها ممسكة بيده.

بينما كان مراد يجذب الفتاة الشقراء ويرقص معها وسط الجموع، تتمايل وتضحك معه وهو يهمس بأذنها بين الحين والآخر ويتحدث ممسكًا بيدها طوال السهرة؛ ما أثار غضب أروى مجددًا، فطلبت من عمر الرحيل، وفعل لأجلها.

كان أمره غريبًا وغير مفسر، وكأنه يعند مع نفسه ومشاعره هو لا هي، هي لا تراه! وهو مصر على جرح نفسه بهذه الطريقة المؤذية.

مراد

متى أردت الاستقرار يحدث شيء، شيء مؤذٍ ومؤسف. الآن رسائلهم لا تتوقف ولست بحالة لأجيب عليهم، ولكنهم حين سئموا نجحوا بإرسال أحد منهم دون خوف! حقًّا يكفي ما دمروه بحياتي، يكفي عبثًا حقًّا، أستطيع سماع صرخات نور فيَّ من الآن حين تعلم ما فعلته، ربما علمت وعاقبتني بالهروب، يقتلني هذا التفكير وأود التخلص من ذلك الذنب بأي شكل، أحيانًا أشمئز من نفسي؛ أنا خائن، عاصٍ ومذنب! كانت دومًا تظن أنني أخونها لأجل تلك الرسائل والسفر المستمر والمفاجئ، وكنت أتركها

لتفكيرها هذا لكي لا أقع بمشكلة أكبر. أحببتك، وكنت وطنك، وكنت أنا المحتل أيضًا يا نور!

دخلت أروى منزلها وهي تكاد تنفجر من شدة الغضب، رعشة أناملها وعيناها اللتان تلمعان من الحزن وكل شيء تعيس متواجد بها بهذه اللحظة، دخلت الغرفة على نور ولامتها على ظهورها بالشرفة مجددًا، ثم جلست قبالتها وسألتها إن كانت فكرت بالعودة، فلاحظت نور شكلها هذا فقامت من مجلسها وضمتها إليها في حنان وقالت: «بتمنى تعيشي الحب اللي عشته، بتمنى يستمر معك عطول».

بادلتها النظرات المتألمة، ثم أمسكت بيدها وقالت: «كونكِ قد تحدثتِ بلهجتك الشامية، فهذا يعني أنك تفكرين بالعودة».

ضحكت وقالت: «لمَ؟».

ـ لأنكِ تتحدثين بها دومًا حين تشتاقين إليه.

صمتت قليلًا، ثم رفعت عينيها إليها وقالت: «لا أستطيع العودة، أشعر بشيء ما يؤلمني، ما زال يفعل كأنني سأندم إن عدت».

فقالت بنبرة حزينة: «ربما يحدث هذا!».

ـ أتعلمين؟ إن الأمر يذكرني بوطنينا، كأنه مصر وكأنني فلسطين، كلانا لا يفهم الآخر رغم حبنا واشتياقنا لبعضنا البعض، كان وطني وكنت أيضًا، ولكنه هو من فعل ذلك.

نظرت إليها بقلق وهي تمسك بيدها، ثم قالت: «معنى هذا...؟». سحبت يدها منها وأجابت:

- لا عودة.
- ولكن، نور...!
- هناك شيء يمنعني، حاجز بيني وبينه بالوسط لا أعلم كيف ومتى خُلق، ولكن أعلم أنني لا أستطيع العودة له.
- ستستمرين بتعذيبه هكذا.
- سأظل أحبه حتى تنتهي أنفاسي، سأحبه كما أحببت وطني، ولكن لن أستطيع العودة، تفهمينني.

أومأت برأسها في جزع وتركتها لتبدل ملابسها، تفكر بأنها مسكينة وحزينة، تقول يا ليتها تعود وينتهي ألمها وكذلك ألمه، لا تعلم لمَ تفكر هكذا، ولمَ قرارها أكيد ما دام سيدمرها معه، هي لا تود له أن يتألم ولكنها تفعل وتقتل نفسها أيضًا؛ غريبة كوطنها! وهو مسكين ومذنب كوطنه!

نور

إن لم أهدم ذلك الحاجز بنفسي فلن يساعدني أحد! ذلك الحاجز خُلق حين ذهبت، أنت لم تساعدني ولم تساعد نفسك، بحثت عني أيامًا قليلة وغزاك اليأس، وتركت كل شيء، تركتني على حافة الهاوية، وتركت الاحتلال يخوض بي ويمكث، أنت

أيضًا محتل يا عزيزي، الحزن والمرض لم يُبقيا بك شيئًا حيًّا! كنت وطني الثاني، تعلم ذلك، كيف يحيا الإنسان بعدما احتُلَّت أوطانه؟! كيف يبقى على قيد الحياة؟! أنا الآن لاجئة، أشعر بذلك، جعلتني لاجئة بعدما كنت سيدة أرضي وملكتها.

على حافة الهاوية

سقطت مصر وسقط لبنان وسقطت فلسطين، خارت قوى الدول جميعها، لم يكن الأمر يُحتمل، ماذا بعد؟! عاد الرئيس يتولى زمام الأمور الذي تخلى عنه، كان يقول دومًا: «مستعدون للحرب»، ولكن ما لحق بنا من اطمئنانه سوى الخراب، أهالي الجنود يودون القصاص، تركت الحكومة جنودًا بلا سلاح ولا إعداد ولا حول ولا قوة، تخلت عنهم وكأنها نثرت الطعام للصقور! حسنًا، بنو صهيون ليسوا صقورًا، بنو صهيون أوغاد، أوغاد لدرجة كبيرة. بهذا الوقت كان عمر يتعرض لمشاكل كبيرة بسبب إصغائه لكلام أروى، الجريدة تواجه كثيرًا من التهديدات لأنها لم تساند الحكومة، وهو بأي حال ليس نادمًا على شيء أراد له أن يحدث منذ زمن ولكن كان ينتظر من يحثه عليه فقط، يتوافد رجال الأمن على مكتبه ويقابلهم بصدر رحب، يحاول أن يلين الوضع فقط ولكن لا يتنازل أيضًا، بالنهاية هذا مصدر رزق لكثير من العرب،

وهي بجانبه تستمع إليهم معه وتصغي، تهدئه وتمسك بيده من حين لآخر، تخبره أنها هنا معه، يحتاج كثيرًا بهذه الآونة أن يشعر أنه ليس وحيدًا، ولكن لا شيء يَصلح حاله، الأمور تسوء فقط، خاصة بعد آخر خطاب نشره لنور، كان يهاجم كثيرًا من الجهات، ينثر السم بأعضاء جسد فاسد! وهذا جيد إن كان سيقتل الجسد، وليس جيدًا أبدًا إن كان سيضاعف من قوة المناعة ويجعلها تهاجم بقوة أكثر، وهذا للأسف ما فعلته.

«لا أدري كيف يسقط الجميع فجأة هكذا، منذ حرب ٤٨ وأنا أفكر كيف سقط الجميع أمامهم، لا أجد تفسيرًا سوى أن هذا ما أراده الحكام؛ بأس الوطن أنتم، الحديث عن الوطن العربي المتكامل حديث فارغ ومجرد أقاويل كاذبة تنير لكم طريقكم المظلم، الشعوب هذه بعد سنين ستدرك الموقف وتلعنكم، سنلعنكم حتى الموت!

بداية من بئر السبع، للشرق بالخليل والغرب بغزة، صعودًا للقدس أرض الأنبياء، ومنها إلى الرملة ويافا ورام الله، ثم نابلس وطولكرم شمالًا إلى جنين وبيسان، ثم غربًا لحيفا وشرقها الناصرة وطبريا، وإلى عكا وأخيرًا صفد! هذه المدن ستُنسى قريبًا، ستُنسى كما نحن تمامًا!».

لم يكن هناك خيار أمامه، إما مبادئه أو الإصغاء لأوغاد الوطن، واختار شيئًا واضحًا، الحياة تحت رحمة بعض الأشخاص ليست حياة، وليست شيئًا على الإطلاق. بهذا الوقت تحديدًا كان على نور الظهور، أو هذا ما رجحته أروى، كان المقال قاسيًا خرق كل القوانين وأنار للبعض بصيرتهم، أوضح من الخائن الحقيقي ومن المدعي حب الوطن، خاصة أن الغارات لا تتوقف والمذابح الفلسطينية لا تنتهي، الجميع مقيد بالعجز، ولكن فم الصحافة كان أقوى من جيوش العرب حينها!

إما السقوط أو التحليق!

بعدما نُشر المقال بيوم واحد توالت الاتصالات على الجريدة، وتعرض عمر للمساءلة القانونية، حينها كان على نور أن توضح هي موقفها؛ لأنها هي الصحفية التي نشرت تلك العبارات التي استفزت شعور الحكومة، خرجت من بيت أروى بالحلمية أخيرًا، كانت ترتدي فستانًا كحليًّا قصيرًا، وشعرها منثور للوراء ورابطة حمراء تعلوه، بينما أروى ترتدي فستانًا أسود، ويبعثر الريح شعرها يمينًا ويسارًا كما يفعل بقلبها، تتمسكان بأيدي بعضهما البعض لكي تطمئنَّا ولكن لا جدوى! يكاد قلب كل منهما يقفز من مكانه، الطريق قصير، قصير للغاية، لدرجة أنهما لم تستطيعا التفكير، ولم تكونا بحال لهذا. دخلتا الجريدة، الجميع ينظر لنور بعجب ودهشة، تتغاضى عن كلماتهم ونظراتهم وتصعد لمكتب عمر بسرعة شديدة.

الاتصالات على بيت مراد لا تتوقف، يسألون عن نور ويجيب بأنها ليست هنا، ثمة أمر ما حدث ولا يعلمه، يتصل بعمر لكي يفهم الأمر فلا يجيبه. قرر كسر عزلته هذه، نهض من مكانه وارتدى قميصًا لبنيًّا وبنطالًا بيج، وساوى لحيته قليلًا ثم ذهب لعمر بالمكتب، لا يعلم ما حدث ولكنها على الأغلب كارثة، فهو لا يتابع أخبار الصحف ولا يسمع المذياع، ولكنه حين نزل إلى الشارع ابتاع جريدة النور التي يمتلكها عمر، قرأ ما كتبته واخترق الحديث قلبه، إن كانت تود أن تُشعره بالذنب فلن تفعل هذا، لن تكتب أسماء جميع المدن الفلسطينية هكذا، كانت تلومه بصورة غير مباشرة، وكان قلبه يحترق بطريقة متوحشة حين وصل إلى مقر الجريدة، كان قد أنهكه التفكير؛ مذنب يود التوبة، ولكن هل يفلح الأمر إن كان هو نفسه لا يستطيع أن يغفر لنفسه؟!

خطت بقدميها الصغيرتين خطوات بطيئة داخل المكتب، الأوراق مكدسة حوله والهواتف ترن بلا توقف، وهو محاوط بكل تلك الضوضاء وتعابير وجهه ليست بخير إطلاقًا، عمر شخص قوي لا يظهر ضعفه، ولكن حين يقع بمشكلة ما يظهر غضبه ويتضح بصورة غريبة، نقرت أروى على الباب لتنبه بوجودهما، فرفع عينيه ونظر إليهما، الصدمة التي احتلت جسده لم تكن توصف، قام من مجلسه وهتف في حنق: «نور؟!».

تقدمت إليه أروى وحثته على الجلوس لتحاول شرح الأمر له وتهدئته، ولكنها لم تفلح، فقد أخذ يصرخ فيها ويلومها، يقول: «ظننا أنك ميتة»، يقول: «زوجك يتعذب منذ شهور، وباتت حالته مزرية»، يعاتبها على مراد أكثر شيء، ولكن لم يكن هناك وقت لتجيبه أو تدافع عن نفسها؛ فأصوات الضوضاء بالأسفل تعلو رويدًا رويدًا، ولا يعلمون لمَ أو ماذا يحدث، ثم فجأة بدأوا يسمعون طلقات الرصاص، صرخت أروى وأمسكت بيده، فترك مكتبه واتجه إلى الخارج، ولحقته الفتاتان فأدخلهما وقال إنه سيرى ما يحدث ثم يعود، ولكن أروى لم تتفق معه وتمسكت بيده مجددًا، ثم نظرت في عينيه وقالت بحزم: «إما معًا أو لا». فركضوا ليروا ما الأمر، نزل عمر وأروى سويًّا في عجلة، وتبعتهما نور وقلبها مضطرب ووجهها شاحب، تشعر بشيء ما، تشعر بشيء سيئ، تدعو بسرها، تدعو وتعلم أن شعورها صحيح، رأته، كان مقيدًا وحوالي عشرين جنديًّا يلتفون حوله ويصوبون نحوه الأسلحة ويهزونه هزًّا عنيفًا، أصبحت الجريدة خلال لحظات ساحة حرب، لم تتمكن من فهم شيء كانت تصرخ هي وتتخطى الحضور جميعهم لتصل إليه، لم يتمكن عمر من إيقافها فهو أيضًا مشوش ولا يفهم شيئًا على الإطلاق؛ ماذا يحدث؟! ولمَ يمسكون بمراد؟! من المفترض أن تأتي الشرطة للقبض عليه هو أو نور، ولكن هو؟! لمَ؟ وصلت نور إليه، يقف بينهما العساكر عائقًا، وهو ينظر إليها بدهشة وخوف، وتترقرق بعينيه الدموع، ولكنه لا يتفوه بحرف، يكفي ما قالته عيناه، كأنه يتأسف ويشكرها أنها ظهرت ويعاتبها أنها تركته، كأن

المشاعر جميعها اختلطت فجأة ولم يعد قادرًا على تفسير بمَ يشعر، يعجز والعجز يظهر بوضوح في وجهه وأنامله وحركته التي شُلت، تصرخ هي بالجنود وتقول: «ماذا تفعلون؟! هذا زوجي»، تحاول الوصول ليده فتفشل، ويصوب جندي سلاحًا نحو رأسها وترفع عينيها إليه بشموخ كما اعتادت، ولا تخاف، فيدفعها بعيدًا وتسقط رابطة شعرها الحمراء وينسدل شعرها بتمرد عنيف حول كتفيها، وتقوم مجددًا وتتجه إليهم، فيقول قائدهم: «فليتراجع الجميع؛ نحن لن نتردد بقتل أحدهم»، وهو يقاوم الجنود ويحاول الإفلات والتخلص منهم بعنف شديد لكي يصل إليها، أمسك بيدها لجزء من الثانية، وهذا ما جعل الجنود يدفعونه أرضًا ويركلونه كثيرًا لكي يتركها ويخرج من المبنى، وهي تصرخ وتلحقهم وما زالت تصرخ، وصوتها لا يساعدها، وقامتها تتخلى عنها وتسقط أرضًا.

مراد

عادت زوجتي يوم إعلان خيانتي لها! لا أعلم كيف حدث ذلك بلمح البصر! ولكنهم اكتشفوا أمري، اكتشفوه متأخرًا للغاية، فقد تركت أمر التجسس هذا منذ شهور، منذ تعبت نور ونفدت طاقتها، بآخر لقاء لنا، بآخر مرة استطعت لمسها وضمها إليَّ، بهذا اليوم تحديدًا قررت تركهم، لن أفعل مجددًا يا حبيبتي ولن أتركك، هي فقط لم تصدق، وكيف تصدق شيئًا تجهله؟! لا تعلم ما أفعله منذ سنين، لم تعلم أن الإسكندرية كانت مقر لقائنا، لم تعلم أنني أبيع وطنها وهي بجانبي، أتحالف مع الصهاينة ثم أبكي بين يديها

كأنني سأتخلص هكذا من الذنب! أقول لها بكل مرة: «آسف»، أقول: «سأحميكِ وسأكون وطنك»؛ لأن وطنك الأساسي أدمره، كنت خائنًا وعميلًا وكل شيء، أستطيع التنازل عن كل شيء الآن لأجلك، ولأجلك أنت فقط، لو أعود فسأشرح لكِ كم كنت نذلًا، ثم سأطلب أن تسامحيني. ما يحير أنني تركت كل شيء منذ رحلتِ؛ كيف الآن يحدث أن يقوموا بالقبض عليَّ أمامك، أمام زوجتي الفلسطينية؟! كنت خائنًا دومًا بنظرك ولكن هل لم أفكر أنني سأكون خائنًا لهذه الدرجة؟! هذا ما دار بتفكيري فقط طوال الطريق، لم يعد يهمني شيء، أنتِ بخير على قيد الحياة، ولكني مقيد ولا أستطيع ضمك إليَّ، أي عذاب هذا؟!

إلى اللقاء يا حبيبتي...

فهرس

زيارة بوطن تدمر!	٥
رسائل ورقية تلامس القلب أحيانًا، وأحيانًا أخرى تجرحه..	٧
شتاء بارد وعلاقة مثله!	١١
والآن وداعًا!	١٥
ولكني لا أقبل هذا الوداع! (١)	١٩
أصبحت الأماكن متوحشة دونك!	٢٥
لقاء مؤجل!	٢٩
داخل كل قصة، قصة أخرى!	٣٥

ولكني أحاول!	٣٩
هل تحلق العصافير عقب انفجار ما؟!	٤١
وهل يتطاير الدخان قبل الانفجار؟!	٤٥
كورقة شجر بآخر الخريف تتساءلإن كان عليها.....	٥١
بداخلي شيء لك..ربما حقد وربما حب	٥٧
دير ياسين	٦٣
أعطِني رغم الحروب وردة	٦٥
خان يونس!	٧٧
ولكني لا أقبل هذا الوداع! (٢)	٨١
أبقيكِ بداخلي!	٩١
نصف حياة!	٩٣
صباح معتم!	٩٧

ربما سويًّا نتخطى أمور الحرب!	٩٩
عليَّ تحمل الألمإن كنت أنا المخطئ!	١٠٥
الحفل!	١١١
على حافة الهاوية	١٢١
إما السقوط أو التحليق!	١٢٥

كاريزما
للنشر والتوزيع